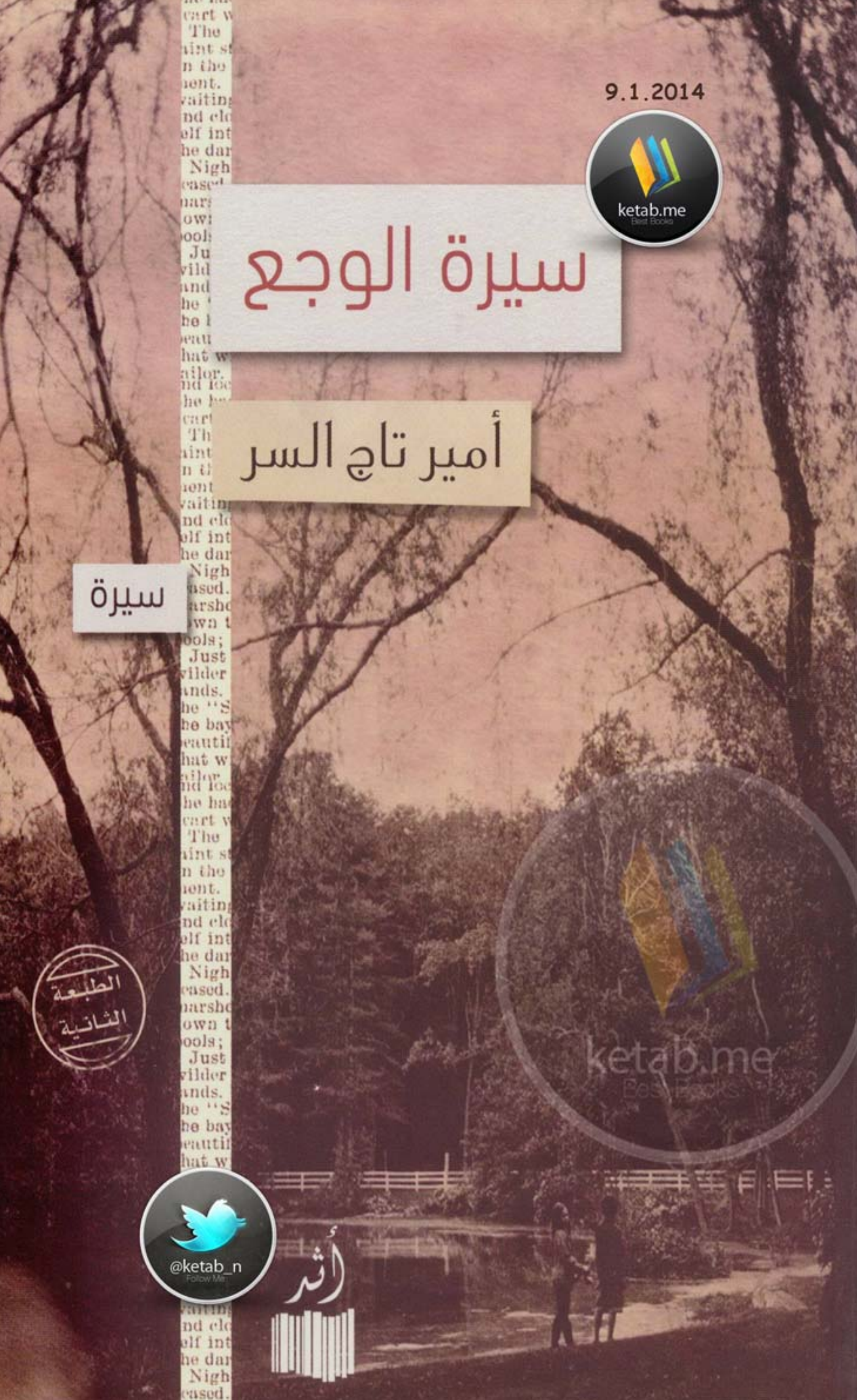

9.1.2014
ketab.me
سيرة الوجع
أمير تاج السر
سيرة
الطبعة الثانية
ketab.me
@ketab_n
أثر



أمير تاج السر



سيرة الوجع



الطبعة الثانية

1433 هـ - 2012 م

ردمك 978-2-84409-662-3



للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية – الدمام

تلفون: 00966505774560

الموقع الإلكتروني: www.darathar.net

Email: info@darathar.net

إلى سنان المسلماني..

مبدعًا في كلّ شيء.

«هذه النصوص فيها كثير من الواقع وكثير من
خيال الكاتب وهذا يندرج على بعض الأسماء».

المضغوط

كان اسمه «أبّكر»..

وكان يمكن أن يكون اسمه «أبا بكر» لولا أنه وُلد في تلك القبيلة التي تُكِنُّ عداء لذلك الحرف المكمل للاسم، تتلذذ بقمعه، واستبدال «شَدَّة» تافهة به حتى يبقى الاسم واقفًا على قدميه.

كنت أعرفه كخياط حدودي متخصص في الأناقة البلدية، وكانت طواقيه الحمراء والصفراء التي يبالغ في زركشتها محط تقدير واحترام حتى بالنسبة لرءوس العُمد والمشايخ، وزعماء القبائل ونظارها. كنت أراها خاشعة في صلاة الجمعة، محتفلة في الأعياد ومناسبات الفرح، وأسمع خيوطها تبكي تألمًا كلما دفنّا ميتًا أو جلسنا في عزاء. ولا أنكر أن رأسي المتحضر الذي ظل عاريًا منذ أن ولدت، قد استعطفني مرارًا لكسائه بواحدة، فلم أستجب.

كان الوقت ليلًا عندما دخل صاحب الاسم المقموع عشائريًّا إلى عيادتي، كان يشكو من مغص عادي، في بطن عادي، لرجل عادي لم يسمع بـ«الحمية»، و«القليل الدسم»، و«خالٍ من الكوليسترول»، ولا فكّر لحظة في مضار لحم الضأن، وعصائد الدخن الممرغة في السمن.

كان يمكن أن أفحص بطنه فقط، أعاتبه بعتاب الأطباء المهني وأحقنه بعقار مضاد وأذهب إلى بيتي وأنام، لكن هيكله الضخم، وصوته اللاهث، ورائحة الدهن غير المؤكسد التي قفزت من عرقه،

وضعت أمام وظيفتي مريضًا مطابقًا لمرضى الضغط وتصلب العروق، وبالفعل كان ضغط دمه أعلى معدل تسجله وظيفتي منذ أن حصلت عليها، أعلى بكثير من المعدل المسموح به للسكن خارج حدود الموت والغيبوبة.. وصعقت.. ظللت أعبث بجثته من رأسه حتى أظافره، أخضعته لتحقيقات وملاحقات، واعتقلت هيكله الذاهل في غرفة خاصة غصّت بالحقن والمحاليل والتعليمات واستغراب أهله وقبيلته، وعندما استسلم ضغط دمه في النهاية، وهبط رافعًا يديهاً ذهبت إلى بيتي.

كان الصباح التالي أشد وعورة من الليل الذي سبقه، وجدت المريض جالسًا على خلاص الروح يوصي عددًا من أهله، قال: خذوا الملابس المفصّلة إلى «عنتر» لإكمالها، والطواقي الجاهزة وزعوها على إدريس ونوراي وسيد أحمد المدرس.. لي نقود عند العمدة، وخروف عند عرب «الزياداب»، وما تبقى من الأقمشة أعيدوه إلى أصحابه، كان أهله يبكون بمرارة، زبائنه يتحسرون على لمساته البلدية الساحرة.. والتي طالما أرضتهم عشاقًا وأزواجًا، ووجهاء، وصعاليك أيضًا بطواقٍ «محدّرة». فحصته بعناية وانزعاج، كان أقوى من مصارع، ضغطه إنساني أصيل، وقلبه بكامل قواه العقليةاً لدرجة أنه يمكن أن يحب ويعشق، ويخفق التياعًا إن دعا الأمر. طمأنته دون أن أستطع طمأنة وظيفتي، وأنفقت يومًا رياضيًّا بالعدو بين غرفته ومهامي الأخرى، وعندما سمعته ينطق بالتشهد الأخير، جاءتني الفكرة راكضة، لم تأتِ من كتب الطب المعقدة، ولا دهاليز «الرغي» الجامعي، لكنها جاءت وحسب. حقنت المريض بعدة قوارير من الملح حتى أعدت ضغط دمه إلى ذلك المعدّل غير المسموح به للعيش بين الأحياء وذهبت مطمئنًا.

كان الوقت مساءً عندما جلس «أبَّكر سعيد» خلف ماكينته «السنجر» العتيقة، يكمل جلاليبه المفصّلة، وطواقيه المزركشة، وقهوته المسائية، وثرثرته المرغوبة عن طبيب مجنون كاد يقتله بلا سبب.

GROUP 7

سمَّيته Group 7 استدلالاً بالهيكل الوظيفي الحكومي العام الذي كان سائدًا في ذلك الوقت كواحدة من شظايا الاستعمار المدفونة في أحشاء الوطن.

وعلى الرغم من أن «عثمان هيصة» لم يكن مؤهلًا إلى تلك الدرجة المبهرجة التي تجعل من حامليها، نجومًا في وسط عائلاتهم وأحيائهم ومحطات السكك الحديدية، والسوبر ماركت، فإنني منحتها إياه ووجدته يرتديها بعنف ويطوِّر من مواصفاتها حتى صارت معروفة لدى البلدة كلها. وكنت كلما التقيته قلت له: مرحبًا يا Group، فيدس السائق الوحيد للمؤسَّسة الزراعية ملامح السائقين بسرعة، يخفض من أكمامه المشمَّرة و«سفَّته المُقنطرة» في الفم، يخرج مشطًا لامعًا من جيبه، يمرره على شعره، ويخرج من أمام المقود الحكومي، حتى إذا رد عليَّ كان بالفعل واحدًا من ذلك الـGroup.

في إحدى المرات شاهدت المدير العام للمؤسَّسة الزراعية يقود العربة الحكومية و«عثمان هيصة» يجلس بجانبه، كان يضع ساقًا على ساق، وقد تجرأ دخان سيجارته حتى احتلب سعال المدير. وفي مرة أخرى شاهدته برفقة عدد من الأهالي يخبُّ عرقهم، يدفعون العربة المعطلة، ومن خلف المقود الحكومي كان «هيصة» يصرخ...

- حرّكوا يا كسالى.

وفي المرات القليلة التي ظفرت بـ«عثمان هيصة» ملدوغًا بمرض

ما، كان مدثّرًا بحاشـية من أهله وقبيلته، حتى عمدة البلدة الذي كان شَـرِهًا في ازدراء القبليين، ولئيمًا في حلّه للعقد والمشـاكل، كان يبدو في وسط الحاشية كأنه تابع عادي لذلك الـGroup.

كان المدير العـامّ للمؤسَّسـة الزراعيـة صديقـي، جمعتنـا البلـدة البعيدة، هو يعمل بصبر في الحقل الزراعي، وأنا أعمل بصبر في علاج مُزارِعيـه، وعندمـا يعـدّ القطن عدَّته ويسـافر إلى بـلاد العملة الصعبة، يسـافر هـو أيضًـا، يسـافر إلـى مَهَامَّ أخرى في أماكـنَ أخرى.. قلت له مرة: أنت ترأس المؤسَّسة الزراعية، وعثمان هيصة يرأسك.

قال ضاحكًا...

- أنت الذي أفسدته عندما سميته Group 7.

كانت الساعة الثامنة مساءً عندما أخبرني ممرضي القدير «سمبابة» أنه توجد حالة طارئة في الخارج، وفي دقائق كان السـائق الـGroup يقتحمنـي وهـو يحمـل طفـلًا، كانت ملامحه «الترؤُّسـية» قد تلاشـت تمامًا، وبدا سائقًا عاديًّا في بلدة حدودية بعيدة، قال:

- لقد تَوقَّف قلبه عن النبض، وشهق شهقة الموت، فأجريت له دلكًا للقلب، وتنفسًا صناعيًّا حتى استيقظ.

كان السـائق الــGroup يتحـدث عـن الــ«C.P.R» إحدى الحيل الطبية المعقدة للإمسـاك بالحياة قبل تلاشـيها، والتي لا يتقنها سـوى قلّة من الأطباء والمسـعفين. ألقيت نظرة على الطفل وشـخّصته على الفور، كان بطنًا جائعًا لا أكثر، ثم أمسكت بصلف الـGroup...

- كيف أجريت عملية إنعاش القلب؟

لم ينطق الرجل بحرف، حمل طفله وخرج سائقًا عاديًّا في بلدة حدودية بعيدة.

نموذج فرنسي

لم تكن «ك.ك» أول فتاة بتصميم أشقر تلقي برونقها في البلدة البعيدة، فقد سبقتها الكثيرات ممن جرحن الوعورة بالرقة، والسُمرة بالبياض، والقلوب الريفية العطشى بالمزيد من العطش. لكنها كانت أول واحدة تلغي من عمرها عامًا أوروبيًّا خصبًا، وتستبدل به عامًا أفريقيًّا مريرًا. لم تكن تخشى «البهدلة»، ولا الغبار المدمر ولا افتضاح بياضها في وسط فساتينها الثرثارة، وعندما كادت فيروسات الكبد ذات الطبع الخشن تأكلها، قالت بابتسامة هشة .....

- أنا شهيدة الواجب.

مشروعها لتغذية الأطفال سيئ الحظ، كان مشروعًا عاديًّا، واحدًا من تلك المشاريع «العيال» التي ينجبها الغرب في القارة السوداء كلما أحس بأُبوَّته تنحسر، ومهابته تنجرح.. جاء «هنري - الكاوبوي» بذات المشروع، وفرّ من لدغة بعوض، وحمى «قرمزية» بلون جلده وبذاءات من غبار «الإيتاب» لوثت رئتيه، جاءت به «جانيت» المدللة، واستؤصلت زائدتها الدودية بمشارط خشنة و«أجفات» عجوزاً وفوط مستهلكة في غرفة بلا هواء ولا ضوء ولا بيئة معقمة، لكن «ك.ك» ربّت المشروع بطريقتها، أرضعته من جهدها، وحوّلته إلى ابن بار لها، ولها وحدها.

عندما جاءت «ك.ك».. تبادلتها التذوقات على الفور، الذين سمعوا بـ«كاترين دونوف» الممثلة.. تذوقوها كأنها تلك، الذين سمعوا

بعارضات «الشانزليزيه» أو قرأوا نتفًا من سيرة «فرانسوا ساجان» طاردوها في دروب البلدة بلا هوادة، والذين لم يسمعوا بشيء من ذلك وذلك، تحسنت مستويات قمصانهم ونظافة سراويلهم، اجتهدوا في ري محاصيلهم وتجارتهم ورعيهم، وأقاموا أعشاشًا من الوهم آملين أن تسكنها الغريبة.

كانت الباريسية شديدة الوعي.. وكنا محظوظين باستضافة وعيها. كانت فارعة الابتسامة... وكنا محظوظين بتسلق ابتسامتها الفارعة. حدثناها عمّا يدور في البلدة، وحدثتنا عمّا دار في بلاد أفريقية أخرى هزّتها ذات يوم بنفس المشروع، ونفس الجَلَد ونفس الابتسامة الفارعة. قلنا لها اهربي قبل أن ينحر العشق عاشقيك، وتعتبرك القوانين الريفية أداة لتحريض المشاعر. فهربت إلى نفوس الناس أكثر. أخلص الأطفال في شرب حليبها المبستر، والتهام عصيدتها «الأكاديمية» وعندما فتكت الرياح المخبولة بمساكن مشروعها المصنوعة من الخشب وبروش السعف، تطوّعت عشرات المساكن الطينية لإسكانه.

وأخيرًا كان لا بد أن تذهب «ك.ك» فقد انتقل المشروع مجبرًا إلى حضانة عدد من الكوادر المحلية، وسمعنا من اليوم الأول صراخه وبكاءه، وبعد عدة أيام كان عاريًا يتسول. قالت «الباريسية» وداعًا، وفي ذلك اليوم تخلت عن الصارمين صرامتهم، والعتاة عتاوتهم، واندلقت في سكة سفرها أنهار من الدموع.

العشـوائية

كنت أسـميها «سـكينة العشـوائية».. أسـتند في ذلك إلى فوضى أحاديثها، وهيئتها المبعثرة من الرأس حتى القدمين. أمنحها من عطاء الجيب ما أستطيع، وأمنع عنها ما لا أسـتطيع، وكانت تحتفي بالمنح والمنـع بنفـس فوضاهـا وابتسـامتها الطاعنـة في السـن. يقـول معمرو الحـدود ممـن يبسـت عظامهـم، وخرّفـت رطانتهـم، وانحنـت ظهـور أعمارهم، إنها من «أسـمرا».. إريترية نزحت إلى بلدتهم بنفس تقاليد النزوح المعروفة، ولنفس أسبابه المعروفة أيضًا، وتقول فوضاها.. إنها من بلاد «الشايقية» أو «الجعليين» أو «الرباطاب».. لها عيونهم «الجلفة» ولسـانهم السـاخر، وشلوخ نسـائهم الغائرة في الخدود. ويقول اسمها «سـكينة المرسـي»، إنها من ريف مصر ربما. وعندما تُسـأل شـخصيًّا في ذلك، تدق على أرض الحدود اليابسة بعنف وتقول: أنا من هنا.

تعرفـت علـى «العشـوائية» وأنا محموم بالملاريـا، ذلك المرض الـذي كان ولا مـا يـزال يبقِّـع جسـد أفريقيا، يشـل مواطنيها، ويزحف بتنميتها الغافية إلى الغيبوبة. كنت أتساءل.. هل هو رافد استعماري؟.. أم شرط حاد من شروط قبولنا مواطنين في تلك القارة المظلمة؟ قضينا علـى «الكوليـرا» و«الطاعـون» و«الحمـى الصفراء»[1] وشـاركنا «الصحة العالميـة» فـي حفلها الرائع لوداع «الجدري».. وتكبرت علينا الملاريا حتى كانت ترافقنا في السفر عضوًا نشطًا في الدم والخلايا.

جـاءت «العشـوائية» إلى بيتـي.. جاءت منحنية تحت ثقل العمر،

وثقل الفضول الريفي الذي كان مشاغبًا وراثيًّا يبث في الأرحام ويحمله الريفيون بكل ثقة واعتزاز ويدقون بشراهته في غرابة الغرباء حتى لا يبقى في غرابتهم عظم أو لحم.. سألت عن أصلي وفصلي ومؤهلي الاجتماعي، وتعاطفت مع «ملارياي».. وجهزت كوبًا من شراب «العرديب» الذي وصفته بترياق الملاريا. كان ترياقها مرًّا في الحلق وجارحًا للمعدة، ومدرًّا للعاب غزير أبى أن ينقطع لأيام عديدة. سألت عن أجرة الدواء بلا خجل، وذهبت ليأتي الصباح حاملًا اعتزاز البلدة بعجوزها التي حكّمت حكيمًا.

توثقت صلتي بالعشوائية.. وجدت فيها كنزًا حكائيًّا لم يتوفر لكاتب أبدًا، قالت إنها تشتهي أن تلبس ثوب «الزراق» الذي كان موضة لنساء الخمسينيات والستينيات، وظل يرافق شبابهن بنفس قوته حتى اكتهلن، فأهديتها واحدًا. طلبت أن يدرج اسمها في قوائم الفقراء ومستحقي الإغاثة، فأدرجت، وعندما وصل اشتهاؤها إلى «تمر المدينة» وماء «زمزم»، ومسجل لسماع أغنيات «حقيبة الفن» التراثية، كان لا بد أن أغلق منبعها الحكائي، فأغلقته ثم عدت إلى فتحه بعد أن دغدغتني فكرة روايتي «نار الزغاريد» منها استقيت شخصية «سعدية شاشاي» ومن رطانتها المعمِّرة عرفت لغة القبائل، وتأريخها، وعندما قلت لها سأكتبك يومًا، فرحت بشدة، أشاعت في البلدة أنها ستدخل في أحد أبحاث الطب. وضعت على وجهها الشيخ «مكياجًا» كثيفًا استعارته من جارة، وأصرت على تصويرها ووضع صورتها في البحث حتى يراها العالم. وبالطبع لم يتم لها ذلك ولن يتم لأن «نار الزغاريد» لم تكن بحثًا، وحكاياتها لم تكن أمراضًا، وأنا لم أكن باحثًا، وإنما طبيب سقط في حفرة الأدب.

«إنتر فيو»

يوم عصبي لمهنتي في المستشفى الحدودي البعيد، فقد جاءتنا راكضة تعليمات من إدارتنا الإقليمية، تقضي بتعيين ممرضين جدد، وذلك لطرد الجوع المهني الذي كان يحاصر تلك المهنة، ويجعلها سيئة التغذية، تترنح وهي تؤدي مهماتها. كنا فرحين للغاية، أنا ورئيس الممرضين، ومحاسب الحسابات البائسة، وعدد من الفراشين، والمرضى أيضًا، كنا نرى في ركض التعليمات جدية، وعلاجًا لصمم كان مزمنًا في إدارتنا الإقليمية.

كانت الشروط ساذجة للغاية، ولعلها الأكثر سذاجة في العالم كله، أن يكون المتقدم من أبناء المنطقة، أن يكون حاصلًا على الشهادة الابتدائية أو ما يعادلها، ويشمل ذلك المعادل شهادات العُمد ونظار القبائل، وشيوخ الخلاوي، وبكاء النساء، واستعطافات المسنين، وأحيانًا توصيات غاية في الخشونة من برلمانيين إقليميين نهبوا مقاعدهم، ويسعون لنهب وظائف لمؤيديهم في الخدمة العامة. أيضًا حدد العمر بين السادسة عشر والثلاثين، فأعطيت مساحة شاسعة تكفي للعب بالأعمار ودس الصبية والمراهقين والكهول في بلدة لا تملك سجلًا قاطعًا للمواليد أو الوفيات.

كانت الحصيلة تسعين طلبًا، قدمت مبتسمة ومكشرة، واثقة وضارعة، ميتة ومسنودة بتوصيات العمد والبرلمانيين، حتى المراسل الذي كان يقف على باب مكتبي الريفي ويعد الشاي والقهوة، يتبسم

في وجوه الأعيان ويكشر في وجوه «الغُبُش»، فوجئت به يرتدي الزي الأبيض اللماع، ويضع اسمي في خانة الأشخاص الذين يمكن الرجوع إليهم لتزكية المتقدم إلى الوظيفة، قلت له من عيَّنك ممرضًا يا محمد آدم؟.. قال: أنت يا عمي، ثم مضى إلى أحد العنابر حاملًا محلولًا من الملح، وحقنة للملاريا، وابتسامة أوسع من ابتسامة «جينا لولو بريجيدا».

قمنا بغربلة التسعين متقدمًا، قيمناهم أكاديميًّا وقبليًّا وعشائريًّا، واستبعدنا بضراوة أي منحى باتجاه المظهر العام. فظل الملتحون ملتحين، والحليقون حليقين، والذين يرتدون القمصان والجزم، مثل الذين يرتدون «العراقي» والسروال، وصنادل «التموت تخليه» المصنوعة من إطارات السيارات، والموغلة في المحلية، وعندما أعلنا أسماء العشرة المطلوبين كنا مرهقين وجائعين، وممزقي الذهن، لكن الأمر لم ينته.

كانت الثانية بعد الظهر عندما اقتحمنا «حقَّار شجر غابات» كان مهتاجًا لدرجة أن كيانه الأسمر الداكن كان معطونًا في العرق، وعينيه الموصوفتين بـ«العسليتين» في بطاقته الشخصية تنزان نارًا حمراء.. كنا قد أسقطناه بجدارة، لم نجد شرطًا واحدًا يسنده، فهو من أبناء جبال النوبة في أقصى الغرب، تسرب إلى الحدود «الإريترية» هربًا من جوع الغرب إلى جوع الشرق ومن عشوائية «كادقلي» و«الدلنج» إلى عشوائية «قرورة» و«عيت» و«عدوبنا».. كان عكازه الأكاديمي الذي جاء يتوكأ عليه، شهادة في محو الأمية، عكازه الاجتماعي.. عدة أغنيات بالغة الأسى شدا بها في ليل الحدود وهو سكران، وعكازه البدني، عضلات صلدة تصلح لرفع شاحنة لا لحقن حقنة، أو تركيب قسطرة، أو وضع مطهر على جرح، حتى اسمه «حقَّار شجر غابات»

كان يوحي بازدراء النظم، ومناطحة القوانين، وتسديد لكمات قاتلة للأسماء جميعها بلا حصر.

حاولنا إقناعه بهدوء فلم نستطع، بخشونة، فلم نستطع، بصراخ، وطرد، فارتفعت أكمامه إلى ما فوق رسغيه، وأطل سكين أميٍّ من جيب سروال الممرضين الأبيض الذي فصله كقرار نهائي بلا رجعة. كانت نظارتي الطبية ترتعش، وكبير الممرضين الذي أنفق خمسين عامًا في تلك المهنة يكركر من بطنه بلا توقف. قال «حقَّار شجر غابات»:

- حتى إخواني في الدلنج عرفوا أنني أصبحت ممرضًا، وستأتي والدتي للعلاج هنا.

فجأة قال كبير الممرضين:

- سوف نمتحنك يا حقار.. فإذا نجحت نقوم بتعيينك.

ولشدة دهشتي تقبل الرجل الأمر، وارتخت عضلاته تمامًا، عادت عيناه عسليتين، وتقهقر سكينه إلى قاع جيبه. انغرس في أحد المقاعد وبدا متقدمًا عاديًّا وربما أكثر خجلًا وارتباكًا.

سألناه عن جداول الضرب، فتقيأها كاملة. عن وظيفة الطبيب فخاطها من قميصها الإنساني حتى حذائها العلاجي. عن وظيفة الممرض، فلم يترك فيها لحمًا إلا عراه. وعندما سألته في النهاية عن مرض والدته الذي يكبدها كل تلك الهجرة للعلاج هنا، قال: إنه مرض الفرح.. فرحة الأم بابنها.

في اليوم التالي كان «حقَّار شجر غابات» ممرضًا تحت التدريب يزهو بلباسه الأبيض، وأسنانه البيضاء، وعراك الملفات والمحاليل، وأوامر الطبيب، وكان يغني.

مقطع عن التكارنة

الذين شيّدوا البلدة البعيدة شيّدوها بمزاج عشائري متعكِّر، ولعل بذاءة المناخ، والنزيف القبلي المتوقد في تلك المنطقة، والشح والفقر والتفاف الحياة والموت حوَّل بقعة زراعية محدودة تعطي وتمنع، كل ذلك كان ينغزهم، ويمدهم بالطين والحصى والرمل، والخشب، فنشأت الأحياء كأسوأ ما تكون النشأة، مشردة ومنطوية، وكثيرة العقد، البيوت كأنها بيت واحد تكرر رسمه بذات الريشة واللون والذاكرة، وحتى البيوت التي كان يسكنها أثرياء الزراعة والرعي، وموظفو الحكومة الذين كان أغلبهم من خارج المنطقة، لم تكن تخالف الرسم إلا في أشياء قليلة، كإضافة مرحاض، أو مطبخ، أو ثلاجة تعمل بالديزل. ثم جاءت التسمية التي لا بد منها لتمييز حي عن آخر، فلم يجهد المشيدون أنفسهم ويبحثوا عن أسماء كالنسيم، و«الإفرنجي» و«حي الثورة» و«النصر»، كانت البيئة لا تسمح بذلك، وأدمغة القبائل شحيحة الاستيعاب، فرقموا الأحياء حتى بلغت خمسة عشر، في كل حي قبيلة كبرى أو هامشية، وفي وسط ذلك يختبئ المهاجرون وتجار الشمال، بأزيائهم وابتساماتهم، وكل عاداتهم التي لم يغيروها أبدًا.

كنت معجبًا بالحي الأول الذي تسكنه قبيلة «التكارنة» تلك القبيلة الغرب إفريقية، والتي كان وجودها في ذلك المكان لغزًا، والمرجح أنها نزحت كأفراد مغامرين، أو فارين، أو أتباع في قوافل العرب التي أناخت في ذلك المكان وغيره، وهي تحمل الدين والنخوة، وعادات

الجزيرة. ثم توالدت على مدى أعوام كثيرة، وأصبحت لها قامتها العالية، وصوتها القوي، ومحاسنها ومساوئها التي أخذت منها القبائل الكثير. لم يكن «التكارنة» تجارًا، ولا عرفوا بعشقهم «للمحل الناصية»، والدكان «أبو ضلفتين»، وقدور الفول، وقلايات الطعمية باستثناء العم سعيد الطباخ الحدودي العظيم»، لم يكونوا عسكريين أيضًا، فكانت حامية الحدود تخلو من سحناتهم، وعددهم في قوة الشرطة السيئة التغذية، صفرًا، حتى المستشفى الحدودي الذي كنت اضطلع بإدارته والذي كان صمغًا خطرًا ألصق إليه كثيرًا من أبناء القبائل وبناتها للعمل ممرضين، وعمالًا، ودايات، أو الرقاد في أسِّرته كمرضى ومرافقين، كنت أتصفحه مرارًا فلا أعثر على تكروني واحد بخلاف «دامبا» السائق الفذ، الذي كان يأكل بعربته الحكومية.. الوعورة والرمال وقطع الطرق كأنه يأكل شارعًا عاصميًا مسفلتًا.

كان أبناء ذلك الحي وتلك القبيلة مزارعين، لم يكونوا مُلاكًا، لكنهم أجراء يعملون بكفاءة الأيدي وغزارة العرق، ولدغة الإرهاق الذي يحمصهم، ويشويهم، ويجعلهم أقل الساهرين سهرًا، والنمامين نميمة، وصائدي العورات تصيُّدًا.

سألت العم سعيد، الطباخ الحدودي العظيم مرة:

- كيف أصبحت أعظم طباخ في المنطقة والمناطق المجاورة، وأنت من قبيلة لا تأكل سوى وجبة «القدو قدو»؟

كان الطباخ العظيم يصنع وجبة من كرات البطاطس المحشوة بالزبيب والخضراوات، بناء على طلب من شهيَّتي، فأكملها، لم يبتسم، لكن فراغًا في فمه أوحى بابتسامة لا بد ستنطرح.. قال:

- موهبة من عند الله سبحانه وتعالى.

سألت السائق الفذ «دامبا» ونحن نتسلق تلًا بلا نهاية في طريقنا

إلـى قريـة منكوبـة، وجد «سـل الرئة» تغذيتها صفـرًا، فأكلها عن بكرة أبيها...

- كيـف تعلمـت القيـادة بهـذه البراعـة وأنت من قـوم لم يركبوا حتى الإبل والحمير؟

كانـت سـيجارته «البرنجـي» فـي منتصفهـا، وكان مزاجـه الريفي معتدلًا، ضحك وهو يروي عن شبابه المتمرد منذ أربعين عامًا، وكيف علمه المهربون من أبناء قبيلة «الرشايدة» فن القيادة، والتجاوز، والتهام الخطـر. وعندمـا زارني القاضي «بلول» الذي عرف بأحكامه المُرَّة في المحاكـم القرويـة يشـكو مـن ألـم في ركبتيـه، أصابه من جراء السـن وسخط الساخطين، وكان من نفس الحي ونفس القبيلة.. سألته:

- مَن علمك القضاء بين الناس وأنت لم تدخل المدرسـة، ولم تقرأ كتابًا، ولست عمدة ولا ناظرًا؟

قال: علمتني الحياة، وجهل العُمد والنُّظار.

دهشة أوروبية

كان المندوب الأوروبي لشئون اللاجئين الذي قدم إلى منطقتنا متفقدًا، وواعدًا بتقديم المساعدة، يبدو مندهشًا في ذلك اليوم، فالرجل كان غزير الأعوام، وواسع التنقلات، وأنفق ثلثي عمره في مطبَّات أفريقيا، ووعكاتها، وحضارتها التي لا تشبه الحضارات.. ولا بد أنه يحشر في دمه طفيلًا أرعن للملاريا، وفي أمعائه بقايا من «دوسنتاريا» أو «تايفود». كان وقود دهشته تلك الغرفة التي نجري بداخلها عملياتنا الجراحية. ألقى بنظرة طاعنة في السن والخبرة على الغرفة، امتص زجاجها المكسور، وهواءها المغبر، وملاءاتها التي كانت بيضاء و«انسخطت» وجهاز تعقيمها الذي يمثله وابور قديم يعمل بتغذية الكيروسين وتقنية النفس الطويل، وعندما خاطبه كبير محضري العمليات، ولاحظ تهلهل صوته، ورعشة يديه، وسعال صدره، و«سفَّة التمباك» التي تشوه شفته السفلى، رطن:

- كم شخصًا خرج حيًّا من هذه الغرفة؟

قلنا له جميعًا بزهو، ونحن نسترجع حصاد عام من الجراحة الفذَّة لأمراض في غاية البدانة والخبث، والسمعة السيئة، تضخم البروستاتا، النزيف الرحمي، الولادة المتعسرة، الزائدة الدودية، الفتاق «الإربي» والسُري، لحميات الرحم، والمجسات، وعشرات الجراحات المنتخبة والطارئة.. ثم نحاول استعادة موتى، فلا نعثر على أحد..

- بل قل كم مريض خرج ميتًا من هنا.

بدا كأن أصواتنا انتصرت على دهشته، وكنا على استعداد لأن نحرث البلدة، والقرى المجاورة نأتيه بـ«أحمد القاش» الذي تمزقت أمعاؤه الدقيقة في شجار «خنجري» في أحد الأفراح البدائية عندما رقص بسيفه أمام حسناء كانت مثار نزاعات وحروب قبلية على مدى أعوام، وقمنا باستكشافه، وترقيعه وإعادته إلى حقول الشجار ببنية أقوى وأعصاب من حديد. كنا على استعداد لمناداة «أمونة إدريس» التي ولدت بعد نزيف خطر، وبعملية قيصرية معقدة، أسمت مولودها على اسم كاتب هذه السيرة، فكان أول مولود بذلك الاسم الحضري يصرخ في تلك البقعة السحيقة، أيضًا كان يوجد «جعفر» الذي تخلص من فتاق السرَّة بعد سنوات من عواء سرته وصراخ أحشائه تحت الجلد، و«مبروك أماتيت» الذي غرس بذوره في أرض تخص قبيلة أخرى فذهبت أذنه اليمنى بضربة من سيف، ثم عادت تلك الأذن في نفس اليوم لتحتل وظيفتها في السمع من جديد.

قال الأوروبي:

- إذن كيف لا تلتهب الجروح عندكم، وهي تلتهب في أكثر غرف العمليات تطورًا؟

قلت: لا أعرف، وكنت صادقًا، لكن موظفي العمليات المحليين كان لهم رأيهم الذي يتوكأ على اعتقادات موروثة أكثر من أي عصا علمية، كانوا يعتقدون في غبار «الإيتاب» الذي كان يدفن الحياة في البلدة ويجعل الأكل والشرب والتنفس واجبات شديدة الوطأة، همسوا برأيهم، فتقبلته الدهشة الأوروبية مجاملة لا مصدقة. خط المندوب على أوراقه كلامًا كثيرًا، كان يدندن بأحد ألحان «الكنتري ميوزيك» وهو يكتب، ثم طلب مني التوقيع، واكتشفت أنه كتب إقرارًا من المفتش الطبي للمنطقة، بأنه ليس في حاجة إلى غرفة جديدة للعمليات.

مهاجر من بحر الغزال

كنا بحاجة إلى عدة جرعات من «البنسلين المائي» لإنقاذ رئة طفلة أقام بداخلها التهاب رئوي.

كنا بحاجة إلى جرعة واحدة من أنسولين السُّكر لنحقق بها محتضرًا شابًّا قبل إرساله إلى المدينة البعيدة.

كنا بحاجة إلى قطن وشاش، وصبغة لليود، وأياد أخرى غير أيدينا التي أدمنت معانقة الخدود، والظهور بمظهر المحنة، كان الإمداد الرسمي بعيدًا ويابسًا، ومعتمدية اللاجئين التي شاركتنا السراء والضراء، وأمدتنا بما يسند وظائفنا لأشهر، قد بدأت تمرض، وداهمت مخازنها الأنيميا، لجأنا إلى عدد من المنظمات العاملة في تلك المناطق، تحت ثياب محاربة التصحر، وتنمية البقعة الزراعية، وتدريب ربات البيوت على أشغال الإبرة، والغزل، فابتسمت لنا أيامًا ثم كشرت. حتى غبار «الإيتاب» الشرس الذي كان يكتسح الحياة في المنطقة، وتنسب إليه نجاحات أسطورية في علاج كثير من العلل كالزكام، والحمى وتصلب المفاصل، كان تلك السنة واهنًا لا يقوى على علاج مفاصله.

كان الصيادلة الحدوديون ممرضين قدامى، انغرسوا في المهنة عيالًا بأنوف سائلة، وأرجل حافية، وخاضوها بدءًا من كنس العنابر وتقليب المرضى وتقديم طعام التغذية الهزيل، وحتى ارتداء الأشرطة الحمراء فوق أكتافهم والابتسامات المغرورة فوق شفاههم، والمشي بخيلاء، وأهلتهم كورسات لاحقة للعمل صيادلة بعيدين لا تربطهم

بعقاقير المدن أي صلة. كانوا خبراء في تمزيق الجرع، وإطالة الأعمار الافتراضية لكثير من الأدوية، حتى لتظنها شابة، وقد اكتهلت منذ عهد وماتت فتوَّتها العلاجية. ونتيجة لجهودهم تلك، ظلّ كثير من العلل مقموعًا، يهمس خفية دون أن يُسمع له صوت. فجأة وفي وسط تلك المعمعة المهنية، بزغ الاسم الغريب للمهاجر «جيمس لوال».

لم أكن أعرف الرجل، ولا خيِّل لمعلوماتي المتواضعة أن مواطنًا من «بحر الغزال» بكل أساسياته وكمالياته الأفريقية يمكن أن يوجد في تلك المنطقة، الذين نزحوا من الجنوب فرارًا من موت «الستينيات» نزحوا إلى مدن الاكتظاظ، حيث الحياة حيّة، والمهن مبعثرة، والأكل والشرب عبئًا يحمل بطيب خاطر، لكن المهاجر «لوال» كان غريبًا، جاء بفلسفته، وبقي بفلسفته، مواطنًا يتيمًا من بحر الغزال، في فوضى ثمانين قبيلة ترقص بالخنجر والعصا، وتحتفي بالغرباء بمطاردة أخطائهم. عرفت أن المهاجر تاجر، وتاجر بخصوصية عظيمة، كان يعرف أن الصحة تاج على الرأس، فخصص تجارته للأدوية، ولم يخسر أبدًا، وسرعان ما كانت له صيدلية بلا ترخيص من أي جهة، قوامها الأدوية المخبأة حيث لا يعلم أحد، كانت بضاعته تمشي مستترة، وتربح مستترة، وتشفي مستترة أيضًا، وعرفت لاحقًا أن مداهمات شتى جاءته خصيصًا من المدينة البعيدة، بعثرت بيته ودمه وخرجت بقوارير للعطر، وسلطة للمايونيز، وعدة جلابيب وسراويل وطواقٍ.

قررت زيارة المهاجر، كنت مستعدًا لشراء هيبتي، وأنفاس مرضاي، وجدته كما وصف لي، متحضرًا حتى رباط العنق، والحذاء «الكعب العالي»، كانت أسنانه جنوبية بيضاء، وابتسامته كأنه استعارها من «سيدني بواتييه» في «ضيف على العشاء»، قمعني فضول الكتابة فسألته عن هجرته، لم يجب أبدًا، هربت عيناه قليلًا إلى حمار ينهق

ثـم عـادت سـائلة عن سـبب ذلك الشـرف بزيارته ومعرفتـه. قلت له: نحن زملاء في نفس المهنة.. قال بما أوحى إليّ أنه استغراب حقيقي:

- هل أنت تاجر؟

قلت محاولًا:

- أقصد أنني زميل لك كطبيب كما أنك صيدلي.

فجـأة انقشـعت ابتسـامة «بواتييـه»، وانغـرس حـذر المطـارد في وجهه، كان يعرف أن جزءًا من مهامي في تلك المناطق، محاربة كل مـا يشـكل خطـرًا على الصحـة، وكان «التصيدل» بلا شـهادة ولا علم ومـن تحـت مظلة الجهل، وصعوبة المواصلات، وانشـغال المفتشـين الطبيين، جريرة قد تجر هجرته إلى أماكن أكثر ظلامًا، تماسـك حتى خلته تشيد من الصخر.. قال:

- أنا تاجر للعطور، والمعلبات كما ترى، لم أبع في حياتي دواء، وصدقني.. لا أعرف الفرق بين «الأسبرو» و«التراسايكلين».

قلت: لكن البلدة كلها تعرفك، وكلهم يشترون منك.

قال: لعله جيمس آخر..

ثـم منحنـي ظهـره، وانشـغل بإزالة غبار عن رف مـن المعلبات، وخيـل إلـيّ أن النـار التـي أوقدها لإعداد كوب من الشـاي لضيفه، قد انطفأت أيضًا.

وطوال إقامتي بالبلدة كان المرضى يتزودون من «جيمس لوال» كلمـا شـح الـدواء الرسـمي، وأنقب متجـره، وبيته، وكل حفرة أشـك أنـه يحفرهـا، فلا أجد سـوى قواريـر للعطر، وسـلطة للمايونيز، وعدة جلابيب وسراويل وطواقٍ.

تحية ولكن

كان العمدة «أوهاج دريري» عمدة قبيلة «الأريقا» في جميع أنحاء الوطن، من أكثر أهل البلدة البعيدة أناقة، ليست الأناقة بقوامها «الفيرساتشي» وعطرها «الشانيلي» ورباط عنقها «الأيف سان لوراني»، لكنها الأناقة «الغبشاء» المحلية، بثوبها «التترون» و«الدمور»، وعطرها «الصاروخ» وعمامتها «التوتل» المموج، والتي يدعها محليون بأصابع متشققة، وخيوط هشة، وماكينات «سنجر» قديمة، وصبر على فقر البيئة والبيئيين، لا ينتهي. وكانت عربته «اللاند كروزر» موديل 1971 لها نفس الهيبة العمودية، كانت متكبرة في الطريق، وفي المواقف العشوائية، ولها أنوار أمامية متغطرسة. كانت قبيلته فرعًا أخضر في جذع قبائل «البجة»، والذي يضم عشرات القبائل، ثم آثر ذلك الفرع أن ينقضم، وينمو بجذع منفرد، وعقابًا لهم على ذلك اجتمعت قبائل البجة، نبشت في قاموسها الرطاني، وعدَّلت معنى «أريجا» من الشجعان إلى «أبناء الحريم»، عممت ذلك التعديل، حتى تنشقه القريب والبعيد. كانت رطانتهم لا تزال بجاوية، زِّيهم بجاوي، وانزواؤهم في البراري بعيدًا عن طحن المدن أيضًا بجاوي، جربوا الرعي والتجارة، والرحيل، ووهبوا الخدمة العامة عدة موظفين، ومدرسين ومحصلي ضرائب، وفي تألق اجتماعي مفاجئ في إحدى السنوات وصل مواطن «أريقي» إلى وزارة إقليمية.

كان العمدة «أوهاج دريري» يحترمني، كجزء من احترام القبليين

لموظفي الخدمة العامة، كانوا يرون فيهم أوفياء هبطوا من شوارع الأسفلت ورفاهية «الكورولا»، و«الكورونا»، والرغيف «التوست»، ومراوح المدن ومكيفاتها، إلى وعورة الطرق، والظهر الخشن لعربات الحكومة، والكسرة المرة، وظلام الريف وركوده، وكان ذلك الاحترام مفصّلا ومخاطًا، ارتداه أطباء قبلي عملوا في ذات البيئة، وتحت نفس الظروف، ويرتديه أطباء يأتون بعدي.

في بداية قدومي إلى البلدة كان العمدة غائبًا، كان في العاصمة، يشهد في عقد للقران، ويبارك مصاهرة بين أسرتين «أريقيتين» سكنتا العاصمة منذ عهد، لكنهما لم تنسيا أن للدم جذورًا، وللقبيلة عمدة، وللعمدة مقامًا، حتى لو كان بصمة على عقد زواج، تكلف أيامًا من السفر، وفي يوم حضوره، خبّره عساكر الحدود على مدخل البلدة عن الغريب، ثم تكفلت الألسن الأريقية بعد ذلك بوصف الغريب، بطوله الملحوظ، وشعره الأسود، ونظارته الطبية، وملامح أبناء شمال السودان التي يرتديها. واستطعت أن أتخيل.. كيف صرع الفضول «العمودي» إرهاق عشرين ساعة من السفر، وطنين فوضى العاصمة في الأذنين، وحرارة المحرك موديل 71، وربما توسلات الظهر لإسناده إلى فراش مريح، وانتصب أمامي. قال بعربية الرطانة التي لا ينجو من شركها أي لسان راطن مهما تعلم و«تفصَّح»:

- أنا العمدة أوهاج دريري.. عمدة عموم «الأريقا» حضرت للمعرفة والسلام.

جلسنا على سرير من الحبال، تحت قمر مكدود، كانت أصوات العشوائيين والكلاب خلف مسكني تنهش من حديثنا الكثير، وتعطي للريف ليله المختلف، كنت أصغى للعمدة يحدثني عن دلتا ونهر، ورعي وجفاف، وتجارة خاسرة ورابحة، وأجداد أسسوا قبيلة

«الشـجعان» وتجـاوزوا «البجـة» بقرون، احترمت تمسـكه بتمرد آبائه، لكنني باغته:

- ما حكاية أبناء الحريم؟

اقترب العمدة من أذني حتى بدا لي صوته يخرج من عشرين فمًا:

- حتى أنت عرفت هذه المسألة.

ثـم نهـض واقفًـا، كان طويلًا وممتلئًا، وثوبـه «التترون» المتوهج بالكاد يملأ جسده، أغلق الباب بتشنج وهو يخرج، وعندما نمت بيننا الإلفـة بعـد ذلـك، ودخلـت في ضيافتـه، وثرثرته، وصلينـا جماعة في المسـجد الملحـق بعموديتـه، أخبرني أنه أعاد فـي ذلك اليوم المظلم، إلى عربته خروفين ممتلئين كان قد أحضرهما لتحيتي، وكان يربطهما عند باب البيت.

موت بعيد

لـم تكـن الإدارة العامـة للبنك الزراعـي، ومقرها العاصمة، وهي تنـوي أن تبِـر البلـدة البعيـدة بفرع أخضر لمصرفها العريق، يسـهم في الارتقـاء بخيـرات الدلتـا، ويعلم المزارعين لغة أخـرى غير لغة «رزق اليوم باليوم» تدري أنها ستميت رجلًا.

بالطبـع لـم نكـن من موظفي ذلك البنـك، ولا ندري إن كان بِرُّه سـيمتد إلـى وظائفنـا المعقـدة، ويعلمنا نحن أيضًا لغـة أخرى غير لغة «السـلفا» و«الكلوروكويـن»، ونزيـف الـولادات، وغير ذلك. ولم نكن نـدري عـن الزراعـة أكثـر مـن درايتنـا عن علـم الفلك، والحاسـوب، وعروض الأزياء النسائية التي يحضرها المغني البريطاني «بوي جورج» سـنويًا فـي باريـس، عاصمـة النور والظـلام. لكننا جُررنا إلى المأسـاة بحبـال شـتى.. حبـال الوظيفـة، حبال الغربة التي تقيِّـد الغرباء بعضهم إلـى بعـض، وحبـال الضيافة التي ألقيناها على الرجل الذي جاء مترقيًا يضحك ويثرثر، ويحصي علاواته التشجيعية وهو لا يدري.

كان أربعينيًّا من ضواحي «كسلا».. كسلا التي أشرقت بها شمس الوجدا وأصبحت جنة للإشراق كما شدا الشاعر القديم «توفيق صالح جبريـل».. كانـت فيه بسـاطة وتقوى.. يرتدي بدلـة «كونغولية»، ونظرة ريفيـة، وفرحـة مـن تلك الفرحـات النادرة التي لم أر شـخصًا يرتديها سـوى «نيلسـون مانديـلا» عندمـا نُصِّـب حاكمًـا على اللـون الأبيض. استقبلناه في سكننا المتواضع، كان سكننا مضيافًا به ستة أسرّة منسوجة

من الحبال، وثمانية ألحفة خشنة لكنها طيبة القلب، ويمكن للجوع أن يعثر بداخله على بعض التمر واللبن ووجبات الكسرة و«الملاح» التي كانت وجبات وطنية عامة. وبهذه الميزات الفذة استقبلنا وودعنا كثيرًا من الموظفين ومسئولي المنظمات واللاجئين، دون أن يداهمنا إحساس بأننا نقصر في بروتوكول الضيافة. أقام الأربعيني القادم من جنة الإشراق معنا، حدثنا وحدثناه، وضح لنا هدف الفرع الأخضر الذي سيفتتح. كان الهدف تقديم قروض للمزارعين يدغدغون بها أجساد الثروة، كان يقول: لن يكون المزارع ثورًا يجر المحراث ثم يأكل، لكنه سيحمل في يوم ما في جيب قميصه الريفي دفترًا للشيكات. انتشرت مقولته، ونتيجة لذلك تأنق كثير من البسطاء، واستبدل بعضهم التنباك بالسجائر، وكانت فيهم فئة تفلسفت أكثر، فأطلقت على نفسها لقب «رجال الأعمال». ساعدناه في العثور على مقر للبنك، والعثور على خط مقروء عند أحد الموظفين الريفيين، كتب به لافتات توضيحية على أبواب الغرف، مثل الصراف.. العلاقات العامة.. قسم القروض، ثم.. المدير، والتي كتبت بالحبر «الشيني» على عكس الوظائف الأخرى التي كتبت بالطباشير. ولم تكن تلك الوظائف كلها سوى وظيفة واحدة سيتولى تأديتها الأربعيني «عثمان أحمد».

يوم واحد فقط تبقى على افتتاح الفرع الأخضر، كان كل شيء معدًّا.. أعددناه بتأنٍ وصبر، جهزنا لمسئولي العاصمة القادمين ما يليق بتكبدهم مشاق السفر، من أكل وشرب، ومديح وثناء، وابتسامات وأناشيد، وبهجة، وبقيت كلمة المدير المعين للفرع، والتي جلس الأربعيني يرسمها ويلون حروفها تحت ضوء مرتعش لفانوس صغير، وقد ارتدى نظارة «الأستيجماتيزم» التي دائمًا ما ترافق المديرين أينما ذهبوا..

فجأة بدأ الأربعيني يرتعش..

فجأة بدأ يتقيأ ....

فجأة غاب عن وعيه المهني والحياتي.. كان حزنه واحدًا من تلك الأحزان النادرة.. ذلك الحزن الذي كان يرتديه «ديكليرك» عندما فقد سطوته على الأبيض والأسود.

لم تكن ملاريا أبدًا.

لم تكن تيفويد أبدًا.

لم تكن حمى «مالطية» ولا «صفراء» ولا أي حمى من تلك الحميات التي أتقنًا أعراضها ومضاعفاتها.. كان موتًا التهم بغتة، الأربعيني المعين لفرع كان أخضر وجف.

في اليوم التالي كان الافتتاح عزاء، كأن متأنقو العاصمة الذين جاءوا بالبدل والعطور، وحقائب «الدلسي» و«السامسونايت» يبدون مضطربين ومشوهين، وكان البسطاء الذين دغدغت الثروة قلوب أحلامهم يحملون النعش إلى عربة مسئولة تحمله إلى إحدى ضواحي جنة الإشراق.

مهاجر من الشمال

لم أستطع أن أفهم أبدًا سر ذلك العشق اللاهث الذي يكنه أبناء قبيلة «الشايقية» التي تنتشر على ضفاف النيل في الشمال لـ«العسكرة» والسلاح. فهم لم يصنفوا إرهابيين، أو قطاعًا للطرق في قوائم النظام العالمي القديم والجديد، ولا خلا تراثهم أبدًا من أغنيات الوجد، وموسيقى القلوب، وكتابة الدم على عيون المحبوبات، كانوا مزارعين، ومزارعين بضراوة، يجرحون الأرض حتى الشرايين، ويغرسون في دمها بذورهم من قمح وذرة، ودخن، ونخل، وكلما أوشكت أن أصدق تلك المقولة التي وسوس بها كتاب التاريخ لعقولنا النامية في المدرسة الابتدائية، تأكد لي أن عشق العسكرة والسلاح ليس جديدًا على تلك القبيلة. قال الكتاب الأزرق المصفوف بإهمال والمخاط بخيوط «الدوبارة» واصفًا ردة فعل القائد التركي «إسماعيل باشا» بعد أن حول خناجر «الشايقية» وسواطيرهم وسكاكينهم إلى أدوات للمائدة، في حملته الدسمة لأكل السودان...

«وقد أعجبته شجاعة أبناء الشايقية فألحقهم جنودًا في جيشه».

لو كان كتاب التاريخ صادقًا.. سألتحف بالصمت وأخبئ وجهي «الشايقي» لأنني من أبناء تلك القبيلة.

لو كان كاذبًا سألتحف بالصمت أيضًا، فما جدوى الصراخ والعراك والتشابك بالأيدي مع كتاب مصفوف بإهمال ومخاط بفتلة من خيط الدوبارة.. وأنا أجلس الآن أمام «شايقي» متعسكر منذ خمسة

وخمسين عامًا.. دون أن يعرف لماذا وكيف.

حين فحصته أول مرة خُيِّل لسماعتي الطبية أنها تفحص حائطًا، كان عجوزًا وصلدًا، ربما أصلد «سبعيني» تنفس تحت فحصها الروتيني. جاء يشكو من سعال وحمى، ولأن المنطقة كانت واحدة من المنتجعات الأثيرة لسل الرئة يقضي في رئات أبنائها شتاءه وصيفه، وربيعه أيضًا، كان لا بد من فحصه بدقة، وجرجرته إلى اختبار «المانتو» وأشعة إكس، وتحليل الريق والأغشية المخاطية، تذمر الرجل، انتصب بقامة أطول من قامة السبعينيين بمراحل، وحين أطلق صوته، كان كأنه يطلق واحدًا من صواريخ «صدّام» المحرمة دوليًا. قال:

- أنا عسكري.. خضعت لهذا الفحص منذ خمسة وخمسين عامًا. أعطني شرابًا للكحة ودعني أذهب.

أعطيته شراب الكحة وتركته يذهب، واختفى الرجل، اختفى عن ذاكرتي وذاكرة الملف الذي أعددته باسمه، حتى تحاليله التي كانت جميعها سلبية، لم يأت سائلًا عنها، على عكس الكثيرين الذين كانوا إذا انغرست في أرجلهم شوكة أزعجونا بلا توقف. وفي أحد الأيام التقينا، كانت المناسبة فرحًا من أفراح إحدى الأسر «الشايقية» المهاجرة إلى تلك المنطقة، وكنت قد عينت شاهدًا في عقد القران، وعندما انتهى العقد انطلقت ثلاث رصاصات حادة مبتهجة.. كانت من سلاحه هو قلت له: مرحبًا يا عم.. بدأ وجهه يتشوه وأصابعه التي تضغط على السلاح تتحرك.. ولم أفهم سر تشرسه.. كان عمًّا حقيقيًّا، وكان جدًّا أيضًا.. ومع ذلك..

شدني أحد أصدقائي الشايقية من يدي، ثم أخبرني.

كان الشايقي العجوز قد هاجر من أقصى الشمال سعيًا وراء وظيفة تهدي إلى يده سلاحًا ولجسده زيًّا «كاكيًّا».. ولصوته غلظة.

مـر بالعاصمـة فأبتهـا نفسـه، والميناء، فأبى ظهـره أن يعمل حمالًا في حركتها الشرسـة، إلى أن تعسـكر في واحد من أكثر فروع العسـكرية رقة ومسـكنة.. قوات السـجون.. عُيِّن حارسًـا في السـجن الذي يضم سـجينين أو ثلاثـة لـم يزيـدوا أبدًا، فـي البلدة البعيدة، لـم يتزوج ولم يعد إلى الشـمال ولم يبق من «شـايقيته» القديمة سـوى «الشلوخ» التي تهـرس وجهـه، والعشـق المنكود للعسـكرة والسـلاح. وعندما تقاعد، تقاعدت بندقيته إلا من صرخات متقطعة تطلقها في أفراح أبناء القبيلة المهاجرين.

فـي مـا تـلا ذلـك، وعندما كنـت ألتقيه، أقول لـه: مرحبًا يا أخ.. فيهز يدي التي كانت في بداية الثلاثينيات بيده التي تجاوزت السبعين، ويكاد يكسرها.

ضغط وعاصمي

لـم تكـن لمـرض «ضغـط الدم» أي هيبة في البلـدة البعيدة، كان ضعيف الشـخصية، وبلا مروءة، لدرجة أنه لم يصب سـوى عشـرين شـخصًا فقط من بين مئة ألف شـخص، يسـكنون البلدة، ويحملون في دمهم ولحمهم أمراضًا كان بعضها يسـكن في خمسـة أسـطر فقط في كتب الطب الجامعية. بينما ضغط الدم كان ممددًا في ثلث الأمراض الباطنيـة، ويزاحـم الجراحـة، وأمـراض النسـاء والتوليـد والعيـون في مسـاكنها. كانت عقاقير «الأدلفان» و«الإذدركس» و«البراينردين» بطيئة الحركـة، تركـد فـي رفوفهـا الإقليميـة حتـى انتهاء عمرهـا الافتراضي ثم تموت، بينما عقاقير أخرى مثل «الإستربتومايسـين»، و«السـبترين» و«فايتميـن أ» المكافـح لمـرض «العشـى الليلي»، كانت تسـتهلك قبل وصولها من مصانعها البعيدة. وكان سيئو الطالع الذين «تَفَتْوَن» عليهم ضغط الدم، وعربد في عروقهم، معروفين وموثقين في دردشـة البلدة ونسـاتها الليلية، بتحسـر الرجال على أعمارهم، وتدمع النسـاء لوعة عليهم، تسـجل الأعين لعابهم السـائل، وشـراهتهم المقيدة في عزائم الأفراح، وأسابيع المواليد، وتراقب مشيهم البطيء وسعالهم إذا مشوا أو سـعلوا. وعندمـا يباغتوننـا فـي المستشـفى لإطفاء قلـق عارض، أو التأكـد مـن هويـة صـداع مفاجـئ، أو التـزود بالدواء التموينـي، تبتهج موازيننا المغبرة، وعقاقيرنا الراكدة، ويحس ضغط الدم بهيبته أمام وجه الطبيب ويديه وكلامه التحذيري، وقد يرتفع أكثر معززًا لتلك المكانة.

من هؤلاء السيئي الطالع كانت «زليخة» بنت «التكارنة»، التي كانت قبيلتها تعتبر مرضى الضغط والسكري قومًا بؤساء محرومين من لذة «القدو قدو» و«الأقاشي» الوجبتين التكرونيتين ذاتي الصيت الذائع، واللتين لا يحرم منهما إلا بائس حقيقي، وقد أفلحت البائسة في نهر صداع الرأس وثقل القدمين، وتراجع الرؤية لسنوات، وانغمست في الحياة «التكرونية» حتى احتلها الضغط من شبكية العين إلى نسيج القلب والكلى. أيضًا سعيد التاجر الذي تسلل الضغط إلى عروقه من خلف بيعة خاسرة، وأخفق دجالو المنطقة في مداواته، واضطر إلى مراجعتنا بعد أن كادت ثروته التي رباها في سنوات عديدة تموت في الركض خلف الأدوية الدجالة.. وقد تخيلت كيف كان ضغط الدم يتبسم، وهو يتسلل إلى عروق أحد العسكريين ذوي اللياقة التامة والجسد المنسق، والصرامة التي لا تسمح للعابثين بالعبث.. كان قد تسلل إليه بين طيات مرسوم بعيد جاءه من سفر، ليخبره بإحالته إلى التقاعد.

كان أشهر هؤلاء جميعًا وأكثرهم استنارة وتعذيبًا لموازيننا الزئبقية حيدر حسن.. كان عاصميًّا من أحد أحياء العاصمة الرزينة، ولد وتربى وتعلم حتى صار حجة في قمع «الجراد الصحراوي» الذي كان يتلذذ بإبادة محاصيل أنفق في تنشئتها كثيرًا من الجهد والعرق، ولما كانت العاصمة مزروعة بالحديد والأسمنت ودخان العربات، قذف بمؤهله إلى البلدة البعيدة، غريبًا وأعزب، يدلي بخبرته في نهارات الشمس، ويستمع إلى همس الوحدة، وإذاعتي «لندن» و«مونتي كارلو» إذا دقت الظلمة وتدها الليلي.

في أحد الأيام انبثق من أنفه ينبوع دموي، فظنه واحدًا من مضاعفات عطره الذي جلبه من العاصمة، فوضع قليلًا من الليمون

على أنفه، وتوقف عن التعطر. في المرة الثانية أكل فسيخًا مملحًا بضراوة أرسله أهله مع كثير من التحيات والأشواق، فثقل رأسه وماتت رجلاه، ولامته معدة مهروسة بالقيء طوال الليل.. في المرة الثالثة سقط وهو يكافح سربًا مجنونًا من الجراد كان مُصرًّا على التهام محاصيل يانعة.. جِيء به إلينا محمولًا على أيد خشنة، وعواطف متباينة، وهلع أكل وجهه العاصمي بلا هوادة.. إنه ضغط الدم.. قلت للعاصمي وأنا أحقنه في وريده المنتفخ.. وأستمع إلى تاريخه المتكتم عليه عن العطر والفسيخ:

- إذن لم يكن عطرًا مهيجًا، ولا فسيخًا ملوثًا.. قال وهو ينظر إلى بعيد.

بعد ذلك بقي العاصمي مراجعًا يوميًّا لمستشفانا الفقير.. إذا رفَّت عينه اليمنى جاء مراجعًا.. إذا رفت اليسرى جاء مراجعًا أيضًا، إذا حزن جاء، وإذا فرح جاء، يأتي برسائله العاصمية ليفضها وميزان الضغط ملفوف حول ذراعه، ويقرؤها والزئبق يعلو وينخفض. وفي أسابيع قليلة التهم كل النشرات الداخلية المحشورة في علب أدوية الضغط، وعندما نقل إلى دلتا أخرى، وجراد آخر، تنفست موازيننا الصعداء، وعادت إلى ركودها، وغبارها القديم.

أحمد القاش

كنت ممتلئًا بالثقة بأن «أحمد القاش» سيعود مرة أخرى.

أرقني ذلك الامتلاء، وأنا أخطو ببصري ويدي اليمنى ونجاحي الذي حققته في البلدة البعيدة، لأودع الرجل المنتصب أمامي بشعره المنكوش بنكشة بدائية، ومشطه الخشبي المغموس في «الودق» والذي يعانق النكشة ويغوص فيها وعينيه الخائنتين اللتين تأكلان الغرفة وأشياءها المبعثرة. كان الرجل على وشك الخروج من دائرة أعمالنا الشاقة بعد أن أمضى خمسة عشر يومًا شققنا بطنه من الضلوع حتى المثانة، وقمنا بخياطة حجابه الحاجز، وترتيق أمعائه الدقيقة، واستخراج دمًا صعلوكًا كان يتسكع في غشائه البلوري.. قهرت الامتلاء قليلًا وسألته:

- هل ستعود إلى الشجار مرة أخرى؟

كأنه ابتسم تلك اللحظة، رأيت فمه مواربًا، وأسنانه بيضاء، وخيانة متوقعة فرّت من بين أسنانه..

- يمكن.

كان «أحمد القاش».. «هدندويًّا» أصليًّا من أبناء تلك القبيلة التي اتخذت من أطراف المدن مساكن، لم تغص في المدينة إلا بالدرجة التي تسمح بمرور أجولة البن والسُكّر وملابس التترون والدمور من تموين المدن إلى أمزجتها، وأجسادها البرية، كانوا عشاقًا للقهوة والرحيل والتسكع في أكثر الأسطر عنفًا في التاريخ الوطني للقبائل..

ولعل ميزة العنف، إضافة إلى نخوة خاصة، جعلت من «الهدندوي» الشهير «عثمان دقنة» فارسًا في الشرق، وطابخًا لواحدة من أشرس حروب العصابات ضد المستعمر الإنجليزي.

تلك الأمسية كان الهدندوي موعودًا.. كان في السماء قمر أبيض، في الحي البري المرتق بالخشب والصفيح، عرس، وفي ساحة العرس مغنون مشحونون وحسناء ترقص.. وكعادة القبائل حاول البعض مشاركتها في الرقص، لكن صوتًا راطنًا وعرًا نط من بين الحشود..

- كل من دخل الساحة و«مريومة» بداخلها، فإن دمه دم نعجة.

تراجع الإعجاب المحتشد مذعورًا، أشفق الكثيرون على دمهم أن «يتنعج»، لكن أحمد القاش لم يشفق، تشتت في الساحة و«مريومة» في رقصة العنفوان تلقي بشعرها وعينيها، ورذاذًا طاحنًا من عطرها المحلي، الذي يسمى «الشاكوين».

أحضروه بعد ثماني عشرة ساعة من سياحة الخنجر بداخله، كان حيًّا بلا دم ولا عروق ولا عينين، ولا نشوة «مريومية»، جسده مبعثر على ظهر بعير خشن، وأحشاؤه التي سخطها الخنجر، ومحا التزاماتها، واجمة من فتحة في الجلد، رطنت عشيرته.. لن يعيش..

قال محضرو العملية.. لن يعيش..

قالت خبرتي.. وآلاتي الجراحية.. لن يعيش..

لكن الهدندوي عاش.. برحمة إلهية، وثلاث ساعات من الجهد والعرق، والبطش والرقة، وتصلب العضلات، وخمسة عشر يومًا في عناية مكثفة فقيرة قوامها إحدى الغرف المخصصة للا شيء، وكمية من محاليل الوريد، ومعونة مثمرة من عقار «الجنتامايسين» وممرض أعزب أغريته بالتوسط لإتمام زواجه المتعثر، عاش الهدندوي.

قلت وأنا أتقرب إلى ذهنه البسيط برطانة تعلمتها في أثناء

وجودي في البلدة البعيدة:

- أرجو أن لا تعود ميتًا مرة أخرى.

خرج من وجهي وعيني ورغبتي في وعظه، كان الخريف متعاونًا تلك السنة، فانشغلت الشراسة بالأرض، والرعي، وغفت خناجر المشكلات في جيوب شبعانة.. كنت أتذكر «الهدندوي» أحيانًا، أتذكر رشفة الموت، التي كادت تندلق في حلقه، ورشفة الحياة التي دحرتها. وعندما كنا نمر بأطراف البلدة نتفقد الجافين، ونوزع الإغاثة أو نتحرى عن وباء، كنت ألتهم البريين بحثًا عن «القاش»، لكنني لم أجده أبدًا، كان كأنه خرافة وانقشعت.

وفي أحد الأيام عاد «الهدندوي» عاد محمولًا على بلاغ بوجود ميت مجهول، وعندما نظرت إلى وجهه تذكرت ثقتي القديمة.. بأنه سيعود يومًا.

أسامة العاصمي

لم يكن المنظر مدهشًا في عيني فقط، لكنه كان مدهشًا في عيني وعيون البراري، وعيون ثلاثة من المتأنقين قدموا من العاصمة بعربة «لاند كروزر» لمرافقتي في تفقد القرى المحيطة بالبلدة البعيدة. كانت القرى كثيرة ومشتتة، ونهمة في التهام الأناقة والراحة، ووقود العربات التي يخطر لها التوغل في تلك الفوضى، وكنا نستعين على تلك الفوضى بمحلية المحليين، نتخذهم أدلة في الطرق، واللغة، والأكل والشرب أيضًا. ألصقنا نظراتنا بالمكان وحررناها.. ثم ألصقناها مرة أخرى، كنا أمام فصل دراسي من «التختة» حتى المناهج، ومن المعلم حتى التلاميذ، ومن الأذكياء حتى الأغبياء، مشيدًا في العراء بلا غطاء، ولا نفقة، ولا أكل ولا شرب، ولا سمعت به التربية والتعليم. كان بناءً من الخشب، فرش ببروش السعف، وقد طلي جانب منه بأسود داكن، ليصبح «سبورة» رخيصة وصبورة يتشوه جسدها بالرطانات دون أن تتذمر. لم يكن حول البناء شيء ولا أحد، وكانت أقرب القرى إليه تحتاج إلى ساعتين مشيًا بأقدام نشيطة.. دخلنا في حصة الرياضيات، كانت ثمة مسألة جبرية في طريقها إلى الحل، فتعقدت بقدومنا، وبدا المعلم بزيه الريفي، وجسده النحيل وملامحه البعيدة عن تلك المنطقة، أشبه بـ«أنتوني كوين» وهو يؤدي الدور العربي للثائر الليبي «عمر المختار».. أو كأنك تأخذ «حسين فهمي» تغرسه في أمريكا القديمة ليؤدي الدور الأمريكي لزنجي، يكافح ضد العنصرية.. تقدم المعلم

منا، وقد نفذ أول ترحيب خطر بباله تلك اللحظة.. ابتسامة ودودة..

- أهلًا بكم في مدرسة أسامة.

كانت في صوته رطانة محلية، وفي يديه وهما تأمران التلاميذ بالهدوء فوضى.

جلسنا على أحد البروش المتآكلة، كان التلاميذ «غُبُشًا» ومتسخين، وقد تدلت حقائبهم القماش حتى ركبهم، تعقد انتباههم قليلًا بتعقد مسألة الجبر، وأخذوا يطالعوننا بنفس النظرات التي يطالع بها الصغار جيوب آبائهم في صباح العيد.. كانت القهوة التي قدمت إلينا من «ثيرموث» بلون الرمل، هي ذاتها قهوة القبائل، والجلسة التي اتخذها المعلم أمامنا لم أرها سوى عند «أدروب الهدندوي» عندما جلس في بيتي ثلاثة أيام يطالب بحقه في إغاثة لم أكن أملكها.. كانت جلسة خشنة، ومعقدة، وصبورة.

كانت دهشتي في أوجها، لكني أسكتها كي أفسح المجال لدهشات رفاقي العاصميين لتتحدث..سألوا المعلم عن كل شيء، وأجاب عن كل شيء.. كانت عاصميًّا أصيلًا.. ولد في أحد أحياء «أمدرمان» المتعبة، لعب «البلي» وكرة القدم، والشراب، حضر حفلات لـ«خضر بشير» و«ابن البادية» و«إبراهيم عوض»، وصفَّر عشرات المرات مع المصفِّرين عند انقطاع «الفيلم» في سينما «العرضة». وعندما اكتمل بشهادته الجامعية وقراءاته التي شملت كل شيء، قرأ في نفسه تمردًا خشنًا.. فاقتفاه، وفي ذلك اليوم كان بعيدًا.. في براري بعيدة.

- كيف اهتديت إلى هذه المنطقة؟

سألت إحدى الدهشات الأنيقة.

- أليست جزءًا من الوطن؟

قال المعلم، والتقط قلمًا أحمر من مكان في الأرض.. وضع به

علامة على كراسة متسخة جاء بها أحد التلاميذ.

- ومسألة اللهجة المحلية؟

سألت دهشة أخرى.

تعلمتها قبل أن أحضر، وأجدتها بعد حضوري.

- ومسألة الأكل والشرب والاستحمام؟

اقتادنا المعلم إلى غرفة خلف فصله الغريب، كانت محشوة بتفاصيل الحياة البسيطة، حياة البر والفقر، والتأقلم.. لم يكن «أسامة العاصمي» مجنونًا، لكنه واحد من أبناء الوطن الذين غسلوا حياة المدن بمياه أنقى وأعذب. وعندما خرجنا من عنده لمواصلة تفقدنا الشاق، كنت ممتلئًا بصورته لدرجة أنها ما زالت في داخلي مستيقظة لم تغف أبدًا.

«سكيورتي»

كان «سمبابة أوهاج» كائنًا غريبًا، امتدت غرابته من اسمه الشارد من أسماء قبائل «الأتمن»، إلى تفاصيل وجهه، إلى أشياء أخرى عديدة. فهو «الأتمني» الوحيد الذي كان اسمه «سمبابة» دون أن يعرف «الأتمن» لماذا سمي كذلك ومن أين جاءه ذلك الاسم راكضًا.. و«الأتمني» الوحيد الذي صاهر «التكارنة» المعروفين ببصقهم للغرباء وانطوائهم داخل حدود العرق والقرابة.. عندما اقترن ببنتهم «أمونة». وأنجب من اقترانه صبيانًا تكارنة وأتمن وخليطًا من هذا وذاك. و«الأتمني» الوحيد أيضًا الذي عمل ممرضًا فذًّا بينما قبيلته تنظر إلى الحكماء والممرضين ومتطوعي الخدمة الإنسانية، والتجار والمحاسبين وعساكر الجيش أيضًا، نظرات تنز منها السخرية.

كان من أحد الفروع المغمورة في تلك القبيلة.. أسمر.. وراطنًا.. وحاملًا لنفس مظلة الشعر المتبلة بـ«الودق» والتي تميز قبائل الشرق عن قبائل الوطن الأخرى. سكنت قبيلته البلدة والأطراف.. وتشتت دمها حتى حدود «إريتريا».. لكنها بقيت مثبتة إلى الجذع بعمودية واحدة، ونظارة واحدة، وكرم واحد، وامتشاق للخناجر والسيوف إذا صرخ الأخ ظالمًا أو مظلومًا.. كنت أرى دمهم المغمور يتلملم من حين لآخر، يصب في البلدة رغبة في حضور زواج أو عزاء، أو عرض الوجه أمام عمدتهم الكبير، ثم يتفرق مرة أخرى. يقول «سمبابة» إنه لا يعرف متى ولد، ولا كيف كبر، ويواجه بحرج شديد الوطأة كلما

طلبت منه بيانات شخصية أسوة بموظفي المستشفى الفقير الذي كان منهم، لكن معاصرين لرحلته الحياتية وثقوا ولادته بيوم وفاة «شيباي» الفتوة.. والذي ظل عيدًا يجدده الضعفاء كل عام إلى أن انمحى بمصائب أثقل جسدًا.

جاءني «الأتمني» في يوم قدومي إلى البلدة البعيدة.. كان ممرضًا في زيه الأبيض، وقبليًّا في الرطانة الخشنة عندما تحدث.. وعرفت أنه صاحب الامتياز ورئيس مجلس الإدارة والممرض، والحارس الليلي للعيادة الخاصة الوحيدة بالبلدة، والتي كانت بناء فقيرًا أسسه «الأتمني» في الستينيات وتعاقب عليه عشرات الأطباء من «الفكي» إلى «عبد الله الشريف» إلى «أنور» إلى «أمير تاج السر».. لم تكن مصدرًا لرزق سلس، لكنها كانت «دفرة» خفيفة لحياتنا كغرباء قلقين وبعيدين وفي أمس الحاجة إلى ورق مصكوك نضعه في أيدي آبائنا عندما نعود.. وقد أسهمت تلك «الدفرة» حقًّا في الحفاظ على قوانا العقلية التي كان يمكن أن تتسرب من جراء الوحدة والظلام. كان إيجار العيادة خمسين جنيهًا، وإيجار فرشها خمسين.. والمرض صاحب الامتياز خمسين أيضًا.. ثم كانت هناك خمسون جنيهًا أخرى غريبة.. وضحها «الأتمني» الراطن دون أن يبدي حراكًا أمام دهشتي الكبيرة.. كانت خدمة إضافية «إسبيشال أوبشن»، ويمكن قبولها أو رفضها.. وهي حماية الطبيب من حوادث قد يتعرض لها في أثناء عمله في عيادة «الأتمني». سألته عن نوع الحوادث.. فأخرج من جيبه الرسمي الأبيض قائمة شاملة من تشويه الوجه إلى كسر الرأس إلى القتل العمد مع سبق الإصرار والترصد.. ضحكت بشدة لكن «الأتمني» لم يضحك.. كان وجهه عاديًّا وعيناه المتناهيتا الصغر ما زالتا تنغرسان في وجهي.. سألته عن نماذج لتلك الحوادث.. قد حدثت بالفعل.. لم أكن راغبًا في رفض

خدمته الإضافية، لكن فضولًا مشوهًا اعتراني في تلك اللحظة.. قال:

- لست شرطيًّا ولا محققًا جنائيًّا.. لكنني أعرض خدمة فقط.

تتبعته بعيني وهو يخرج.. لم يكن يوحي بالمظهر المترف لرجال الأمن و«البودي جارد» كان جسده أقرب إلى أجساد المرضى.. شاربه أربعيني مبقع بالأبيض.. ساقاه رقيقتان، ونعال «الباتا» التي تغلف قدميه فائضة عن حاجة القدمين.

باشرت عملي في عيادة «الأتمني».. كان الرزق يأتينا زاحفًا أحيانًا، ومهرولًا أحيانًا.. وراكضًا بأقصى قوة في أحيان أخرى.. وكنت أرى «الأتمني» وقف المرضى أمام غرفة الكشف إيقافًا متمرسًا، يجردهم من خناجرهم وسكاكينهم وأصواتهم العالية، وقدراتهم القتالية، ويزودهم بإرشادات هامة من بينها التأدب في حضرة الطبيب.. وفي بعض الأحيان كانت الأصوات ترتفع في حجرتي فأرى «الأتمني» واقفًا بيني وبين الأصوات المرتفعة.. أو ممسكًا بمرافق نزق وجاره إلى خارج الغرفة.. وفي أحد الأيام رفض بشدة أن يأخذ «خمسينه» الإضافية لأنه اكتشف أنه أفلت سكينًا دخل بها أحد المرضى إلى حجرة الطبيب.. حدث ذلك في أثناء بصقه «لسفَّة التمباك» من نافذة بالمبنى.. رفض بشدة على الرغم من أن المريض لم يستخدم سكينه أبدًا.

محافظة ومحافظ وحلم

شيء غريب حدث للبلدة البعيدة. ولعله أغرب شيء يحدث لها منذ أن ولدت وترعرعت بين جاراتها البلاد الأخرى، فقد تقرر فجأة ترقيتها إلى محافظة.

لم يكن بالبلدة ما يستوجب الحفاظ والمحافظة. كانت الجغرافيا شديدة الاكتئاب والانطواء تبكي بنهر موسمي صغير على رقعة يابسة من الأرض قد تخضر، وقد تتمرد.. كان التاريخ مشلولًا وأخرس، يتوكأ على عكاكيز القبائل «الكحيانة» يتحدث برطانتها إن تحدث. كان الصباح شبيهًا بالمساء، والمساء شبيهًا بالصباح والليل يرتشي بالنميمة والضحك، وتصيد الغرباء حتى وهم ميتون.

جاء القرار راكضًا.. أرشده إلى البلدة بعض أبنائها الذين كانوا على سفر وعادوا، كانوا يحملون حلوى وبسكويت.. ونكات، واندهاشات، وقرارًا بإدراج اسم البلدة في قائمة المحافظات الحديثة التي قررت السلطة إنشاءها.

في البدء لم يصدقهم أحد.. وحاول كثير من العمد والنظار وذوو الكلمة المسموعة إيذاء أصواتهم.. وتجريحها وإسكاتها.. كان قرار الترقية يعني أن يُرسل محافظ مسنود بهيبة وتعليم وسيارة يتبسم في مقدمتها علم ليقضي على العمودية والنظارة والكلمة المسموعة. لكن الإذاعة التي لا يستطيع إسكاتها أحد ما لبثت أن بثت النبأ بعد عدة أيام في إحدى نشراتها الجماهيرية. ثم جاء المحافظ بعد ذلك

كقول «جهيزة» القديم.

كان بالبلدة إداريون رسميون، بعضهم من أبناء المنطقة استندوا إلى إقليميتهم المحبذة رسميًا، وإلى تعليم أولي أو متوسط وارتدوا «الكاكي» والابتسامة، واحترام المحليين.. وظلوا لسنوات طويلة يتبخترون، بمنأى عن الترقيات، والتنقلات، وسكاكين الصالح العام المسنونة على رقاب زملائهم من إداريي المدن.. هؤلاء وزعوا على قرى مبتورة الخدمات وهم يحملون ضغينة وانكسارًا، وعتادًا فقيرًا لترقيع ذلك البتر الخدمي. وكان بها أيضًا إداريون من مناطق أخرى.. عاصميون وإقليميون.. أرسلوا إلى البعد الشاق كضريبة وطنية أو لاكتساب خبرة.. كان بعضهم قد توطن وتزوج، والتصق بالبلدة بغراء الزوجة والعيال.. وكان بعضهم متذمرًا.. يعيش على أمل موته.. أو إقصائه، أو إعادته للحضر. هؤلاء عينوا مساعدين ومشرفين و«سكرتيرين».. وحملة لبرامج الإصلاح والتعمير، والخطط.

كنا مسرورين لذلك التطور، لم نكن عمدًا ولا نظارًا.. ولا ذوي كلمة قبلية.. كنا نؤدي خدمة وطنية شاقةً ونفرح لكل ما من شأنه خدش ملل البيئة الذي كنا نعيشه، وعندما جاء المحافظ أحسسنا بتلك النكهة وذلك الطعم.

كان شابًا في أواخر الثلاثينيات، عسكريًا ومنضبطًا، وله ابتسامة لا تشع إلا في وقتها ومكانها، ولغرضها الذي خرجت من أجله.. لم يحم على كبر الكبار.. وقهوتهم وخرافهم المجندلة من أجله، وحتى الاحتفال الشعبي الذي حفره المحليون لاقتناص وده، وغص بالخطب والأشعار والرطانة ورقصات التراث، جاءه ضجرًا.. وأجهضه بكلمة قصيرة باترة، ثم مضى في البلدة ينقب عن الخلل.. الذي لم يكن بحاجة إلى تنقيب. كانت الجغرافية خللًا والتاريخ خللًا والمجتمع

خللًا والمنصب الذي أسند إليه شركًا عصيًا.. كنا نراه ملتهبًا يجتمع وينفض، ويستقبل ويعين.. ويقيل ويبني ويرصف، ويشجر ويسقي، ولا يلتفت إلى لحية الشباب الثلاثيني التي شاخت وملابس العسكر المشعة التي بهتت نجومها وكاد يسقط صقر الرتبة من عليها، والعلم الذي تآكل في مقدمة سيارته، وفي إحدى المرات عرض علينا استخدام سيارته القوية كإسعاف إذا حدثت حادثة في إحدى المناطق الوعرة.

عدة أشهر مضت كنا نقترب من قلب المحافظ ويقترب من قلوبنا، نذكره بصعوبة مهمته ويسكتنا بعشرات الصعوبات التي خاضها في أماكن أخرى كعسكري في الجنوب، وإداري في الغرب، وجندي خشن يسقط سلاحه بسقوط روحه. وكانت من ثمار جهده أن أصبح ماء الشرب الشحيح ماء كريمًا يخرج من مواسير كريمة في أي لحظة يطلب فيها، أصبح للبلدة طريق شرياني يضخ دمها المتحضر نوعًا إلى أخواتها القرى المختنقات بالجهل والتخلف، أصبح النهار القبلي عمليًا ومتعاونًا، وأسهم أبناء القبائل في توزيع الإغاثة، أصبح لمستشفانا الفقير دعمٌ رسميٌّ استخدمناه في التغذية وتوفير الدواء، وأصبح اسم البلدة يبث كثيرًا على الهواء بصفتها محافظة من إحدى محافظات الوطن. وعندما غادرت البلدة بعد ذلك لانتهاء عملي، غادرت على طريق أسفلتي، وكان المحافظ في وداعي بابتسامة في وقتها ومكانها.. وبنجوم عسكرية باهتة.. وسيارة بلا علم.

ملاريا وأرستقراطي

بعد ثلاثة أيام فقط من وجودي في البلدة البعيدة، استلمت تعب الوظيفة، وفقر السكن، وتلكؤ المحليين على وجهي، وقامتي وابتسامة الفرح التي كنت أدفعها إلى شفتي غصبًا، وحموضة الأكل والشرب، التي كانت جزءًا من طهي المحليين لا يكتمل إلا بها، نهشتني الملاريا.

لم تكن كملاريا «أبي الطيب المتنبي» ذات الحياء والخفر التي لا تنهشه إلا في الليل والظلام، لكنها ملاريا مفتلة وملاكمة، بعضلات «البرنس نسيم»، ولها نفس غطرسة الفائزين بالضربة القاضية. ولعل طفيلياتها المسماة بـ«التروفوزيت» قد نالت تدريبًا طويلًا بفضل فقر البيئة، وتسول الدم، واستجداء الأجساد المحلية الناحلة للشحم واللياقة دون جدوى. خضت مع الملاريا الملاكمة جولة استمرت نصف يوم ثم سقطت. وكان خبرًا تعيسًا للبلدة وهي تجهز أمراضها وعللها وفضولها، وذبائح وجهائها، أن يسقط الطبيب دون أن يداوي أحدًا، أو يأكل من ذبيحة أحد. كان يوجد بالسكن عامل محلي إلى أقصى درجة عينته الجهات الرسمية عاملًا بالمستشفى، ثم دحرجته رويدًا رويدًا إلى خدمة الأطباء كحافز شبه مجدٍ يضفي على عمل الطبيب في الريف وقارًا وهيبة، كان في عشرينيات العمر، لا يقرأ ولا يكتب ولا يسأل ولا يجيب، لكنه يدخن سجائر «أبو قندول» ويسف «التنباك» ويؤدي مهامه الخدمية جيدًا، وعندما يذهب النهار، تذهب «برمجته» ويفر صمته، وينطلق في البلدة متحدثًا ومنصتًا، وناقلًا وقائع

النهـار الـذي يقضيـه في خدمة الغربـاء.. وكنت عندما أصادفه ليلًا في ظلام البلدة أصادف وجهًا آخر، ولبسًا آخر، يختلف عن لسان الصباح بشدة.

انتهيت من إحدى نوبات القيء، والرعشة، وبدأت أعرق.. عندما اقتحم مرضي العامل المحلي، كان الوقت في بداية الليل، شيد الظلام حوائطـه، وبـدأت أصـوات الريـف تشـحم وتسـمن وتتعـارك وتنتصر وتنهـزم.. كان العامـل المحلـي مبتسـمًا، وكان مثقـلًا بأوانـي وأقداح، وشاي وقهوة، وخبز دسم بعثره على مرضي..

- هذا من العم حسن.. لقد سمع بمرضك.. وجاء للزيارة.. إنه بالخارج في عربته «اللاند روفر».

لم أكن قد سـمعت بالعم «حسـن» من قبل، ولعل عدم سـماعي بـه تزامـن مـع عـدم سـماعي بالكثيريـن من وجهـاء البلدة، نسـبة إلى وجـودي الحديـث، ونهـش الملاريا التي لا تشـبه ملاريا «أبي الطيب» لـذات الوجـود قبـل أن يتبلـور.. لكن فداحة العشـاء الذي أتى ونظافة الأواني، والزي البراق لدلال الشاي والقهوة، ولهجة القروي، والانتظار بالخـارج فـي عربـة «لاند روفر» فـي بلدة بها خمس عربات فقط، كل ذلك نبهني إلى العم «حسـن»، ونهضت مسـتندًا إلى عصا صغيرة من العافية لاستقباله.

كانـت ملامـح أبناء شـمال السـودان محفورة على وجهه بشـدة، نفـس ملامحـي وملامـح أبـي وأجـدادي، نفـس زيهـم ونفـس بياض العمامـة، لكـن فـي اللكنـة رطانة.. وضح لي العم في ما بعد، أنها من جراء تعايشه الطويل مع البيئة، واكتشفت أيضًا في ما بعد، أن له لسانًا راطنًا يسـتخدمه في تصريف شـئونه.. ولا يختلف عن ألسـنة القبائل أبدًا.

في البداية عاتبني بشدة عن عدم سؤالي عنه، والحضور للسلام عليه عند مجيئي للبلدة، وعندما قلت له إنني لم أكن أعرفه، ولم أسمع به من قبل، استغرب بشدة، لدرجة أن غضبًا مفاجئًا ارتعش في يديه، خمنت في تلك اللحظة أن تمدد اسمه واندلاقه في مجتمع البلدة لا بد قد منحه إحساسًا بأن ذلك التمدد قد لحق بكل بلاد الوطن.. كانت دهشته حقيقية وكثيفة. وبدا صوته جريحًا وهو يسألني:

- ألم يرسلوك إليّ؟
- قلت.. من؟
- قال: الحكومة.
- قلت: كيف ترسلني الحكومة إلى شخص.. لقد أرسلوني إلى البلدة كلها.

كانت رعشة جديدة قد بدأت، وبدأ قيء جديد عندما أصلح العم عمامته فوق رأسه، وملامحه على وجهه، قال: لا يهم. وبدأ الشمالي المدسوس داخله يطل برأسه.. حدثني عن نخيلهم القديم، ونيلهم الذي سبحوا فيه أطفالاً ومراهقين، ثم قفز إلى ثرائه الجديد ومكانته الجديدة، وسفره واستقراره، وسماعه الإدماني لنشرة الأخبار من «لندن» و«مونت كارلو»، وأخرج من جيبه صورًا براقة تمثله أنيقًا بالبدلة ورباط العنق، والابتسامة، يتناول عشاءً فذًا في «هوليداي إن - فرانكفورت». ثم بقميص صيفي أزرق، يطعم الحمام الفرنسي في ساحة برج «إيفل».

كانت زيارة غريبة.. زيارة مستعد لها بعمق، وإتقان، وكانت الدهشة التي نهشتني قد خففت من نهش الملاريا.. وأخذت أنظر مبهورًا إلى العم وصوره وعطلاته، وأستغرب مثله.. كيف لم ترسلني الحكومة إليه؟

موت عرس استفزازي

كان الوحيد الذي أصيب بمرض القلب في البلدة البعيدة.

كانت أزمة القلب مرضًا عاطلًا ومطرودًا، بلا بيت ولا أهل ولا سند، لقد تكفلت البيئة باجتثاث «كوليسترول» الدم من جذعه، كما تكفلت بتحجيم «الضغط» وصرع «السكري» وحرق الدهون وهي أجنة في الأرحام، فامتعضت بوادر الأزمات القلبية وهاجرت إلى المدناً حيث الظل والفخامة ولحم الضأن والمكاتب والإدارات الغاصة بضحايا قادمين لا بد. ولم تبق في البلدة سوى أزمة واحدة، تنصلت عن الهجرة، وتسللت إلى قلب المعلم القديم محققة انتصارًا غريبًا وشاقًّا، ومربكة لفقرنا الطبي الذي كان يحارب بأجهزة وعقاقير مريضة ومتثائبة.

وجدنا بعض «الأوكسجين» النقي.. ولم يقصّر.

ووجدنا عقار «اللاذكس» منقذ الحياة العظيم.. وأنقذ حياة إلى حين.

ووجدنا شهامة أوروبية شقراء من «جيمي» الفرنسي أحد المشاركين في مشروع غامض لتغذية الأطفال بتمويل من السوق الأوروبية. حيث حمل المعلم المتأزم في عربة سريعة شقت طرق الوعورة كالسيف نحو أقرب مدينة.

كان الوقت ظهرًا، الثانية عشرة الحارة بتوقيت الصيف والملل، والريف، وكنا على موعد في ذلك اليوم مع عرس استفزازي يلغي

من الرتابة يومًا. كان العريس «أريقي» من جماعة «أوهاج دريري» العمدة الطويل والرزين والمدهش، هو أيضًا يعمل بالتدريس.. شاب ومنضبط ورياضي، ومشارك في كل أنشطة الريف الخرقاء والسمجة.. كان عضوًا في رابطة الشباب، ولاعبًا في فريق كرة القدم الحافي، وكان أيضًا مخرجًا لسلسلة من التمثيليات الساذجة، التي يؤديها صبية متسخون لم يسمعوا بـ«عمر الشريف» و«رشدي أباظة» ولا حتى بـ«الفاضل سعيد» الممثل «الشايقي» العظيم الذي كان أشهر من «اللورد كتشنر»، و«العربة اللاند كروزر» و«سجائر البرنجي»، و«الملكة إليزابيث الثانية»، ولم يكن «دييجو مارادونا» مشهورًا في ذلك الوقت، وإلا لكان أشهر منه أيضًا. وكانت العروس خليطًا من أهلنا الشايقية، وإحدى قبائل الشرق، وكان أعظم ما في المأساة أن والدها هو المعلم القديم الذي تأزم قلبيًا في ذلك اليوم بالذات.

منذ الصباح الباكر نحرت الخراف وتوافد مغنون منكوشون ومزخرفون من حيث لا يعلم أحد، واستند مولد كهربائي حضر من المدينة خصيصًا في ذلك اليوم إلى ذراعين سميكتين وبدا مستعدًا للانقضاض على الظلام وصرعه، ووزعت رقاع الدعوة على البلدة كلها، لم تكن رقاعًا مزخرفة على ورق أملس، ومحلى بالورود وعاقبة المسرات، لكنها كانت رقاعًا شفوية، محلاة بالصياح، يوزعها الصبية والكبار بألسنة محلية وراطنة، وكنت صاحب حظوة بصفة الوجاهة التي ألبسني إياها الريف، وسقطت بعد ذلك بخروجي منه، لم يُرسل إليّ صوت صائح، ولا لسان راطن، ولا صبي «مبهدل» حيث سرق والد العروس عدة دقائق من مشاغله، وجاء إلى بيتي داعيًا.

كانت النساء مكتملات ومستعدات، الكحل الأسود في كل عين، أساور الذهب «الغبشاء» تعض على المعاصم بقوة، والثياب القديمة

تبدو حديثة، والرقص الشعبي المحلي زاهيًا، ومتأنقًا، يؤدي بفرحة العروس، واكتمالها، وابتساماتها، وكان «الكيوبيد» الريفي الذي جمعها بـ«الأريقي» الشاب الرياضي سطوة يبرزها بين حين وآخر. ثم جاءت الأزمة.

لبيت نداء الاستغاثة على عجل، حمله صبي من نفس أولئك الصبية الذين حملوا دعوات الفرح منذ الصباح، كان مشوشًا، ومرتبكًا وهو يخبرني عن مبتهج سقط، كان مكتبي يغص بمراجعين روتينيين، وعنابري تغص بالملاريا، وربما كانت في غرفة الولادة واحدة تئن، وطفل يوشك أن يخرج إلى الحياة، كان المبتهج ممددًا على أرض صلبة وجهه أزرق سماوي، وصدره لاهث كأنه يعدو في مضمار حقيقي.. كان كل شيء مالحًا، وشراهة العرس الاستفزازي تركض نحو المأساة.

الغداء الذي جُمِّل بالوجبات الموسمية، وكانت تترقبه البلدة منذ الصباح، تأجل التهامه. النساء المكتملات زينة وكحلًا انطفأن.

العروس المزركشة ككرنفال جنوب إفريقي، تبعثرت كبقايا حرب، والأريقي الذي كان يختال في جلبابه «السكروتة» الفاخر.. بدا بجلباب من الدمور، ينقب في مزاجي المتعكر سائلًا عن كل ما يمت للأزمة القلبية بصلة. وبالطبع اختبأ ليلنا الذي كنا ننتظره لكسر الرتابة والملل.

صباح اليوم التالي جاء جسد المعلم القديم، ملفوفًا بثوب أبيض، ومحمولًا على نفس شهامة الفرنسي، وعربته التي كانت تشق الوعورة ببطء وتثاقل.

تغذية راقية

كان الدعم الغذائي الذي وصل إلى مستشفانا الفقير في ذلك الصباح غريبًا ومفاجئًا، ومدرًّا لكثير من الدهشة والفضول، لم يكن مجرد تغذية حكومية روتينية قوامها السمن النباتي والدقيق الخشن، والعدس والفاصوليا، لكنه كان حمولة شاحنتين لامعتين على أحدث طراز من «كريمة الكسترد» وسلاطة «المايونيز»، والتمر المديني، وعدة أصناف أخرى غالية ونادرة ذات وجوه صبوحة، وابتسامات عذبة، لم يذق المرض المكوم في عنابرنا مثلها أبدًا، ولا حتى ذاقت الصحة المبعثرة في فقر البلدة مثلها أيضًا.

كان العم «ضرار» مسئول التغذية الريفي مدهوشًا، ومشوشًا، ولاهثًا، فمنذ عين مسئولًا منذ أربعين عامًا لم توقع يداه إيصالات تسلم بهذا الرقي، ولم تنعم مخازنه الخرقاء، بملامسة بضائع بهذه الرقة والنعومة، كانت حبوب الفاصوليا المزعجة مبعثرة في كل صوب، والدقيق العكر ينزح من تحت الأجولة ليعطي لاتساخ المخازن نكهته المميزة.

في البدء ظن العم «ضرار» وظنت عيناه الستينيتان أن الشحنة تجارة أرستقراطية ضلت طريقها إلى الريف، وضلت دروب التجار الريفيين وأخلاقهم أيضًا إلى تغذيته الفقيرة، لكن أختامًا وتوقيعات، ومراسلات، وتسكع اسم المستشفى الفقير في رأس الورق، كل ذلك سطا على ظن العجوز ومحاه من رأسه، وعينيه. تسلم البضاعة، ووقع،

وتشتت، وكسر نظارته الطبية، وجاءني يلهث. واكتشفنا معًا، واكتشفت معنا بعض الأعين الفضولية، أن ذلك الدعم منحة من إحدى المنظمات المعنية بالفقر والجهل والأمية.. أبرت به كثيرًا من مستشفيات الريف، وشملنا ذلك البر.

كان هاشم فقيري طباخًا في المستشفى البعيد منذ تأسيسه، واحدًا من أبناء قبيلة «الدناقلة».. هاجر إلى البلدة منذ عهد، وبدت هجرته غريبة وشاذة، لا تشبه هجرات أبناء قبيلته التي شملت الخليج ومصر والأردن، وحتى جنوب إفريقيا أيام وجهها العنصري وما قبل ذلك، لم يقل لأحد لماذا جاء، ولم يسأله أحد، لكنه بقي في البلدة بنفس زيه الدنقلاوي، ونفس لسانه الراطن، ونفس الميول المهنية لأبناء القبيلة، حيث تسلل إلى مطبخ المستشفى طابخًا وجبات العدس والفاصوليا، ومرقة الدجاج بمواصفات ونكهة يعرفها كل ريفي مرض، واتخذ من أحد العنابر سكنًا مؤقتًا.. وعندما كنت أنتقده أحيانًا، وألوم يديه على تقتيرهما في البصل واللحوم، وجعل الفاصوليا مجرد ماء تسبح بداخله الحبيبات، كان يغضب، ويقول:

- لو عودنا الناس على أكل أفضل ولم نستطع توفيره يومًا.. فستحدث ثورة.

وبالطبع لم يكن الرجل يقصد ثورة بمفهومها السياسي الشامل، إنما كان يقصد احتجاجات هزيلة، تلمع قليلًا وتنطفئ.

تسلم «هاشم فقيري» خامات مطبخه الراقية، في البدء عجزت خبرته عن صياغة الكسترد، وتوظيف «المايونيز»، وإدخال شرائح «التونة» و«السردين» في طبخات ملائمة، ومضى أيامًا يجرب حتى اخترع طبخات، وحساءات، وتحلية فذة جرت الأصحاء إلى مستشفانا، طلبًا للأكل الغريب. كانت بعض النساء يأتين منذ الصباح، يطلبن

حصتهن في الكسترد والجيلي، وكان بعض المرضى الذين رقدوا أيامًا في المستشفى، وأدمنت ألسنتهم ومعداتهم الطعام الراقي ثم شفوا بعد ذلك، يأبون الخروج بشدة، ويخترعون أمراضًا أخرى يتعكزون عليها، وفي أحد طوافاتي على العنابر.. وعندما وقعت بخروج أحد المرضى وجدته يصرخ فجأة:

- عندي مغص في الهرمونات.

وكانت أكثر مضاعفات التغذية الراقية التي صادفتني إثارة وتعقيدًا ما فعله أحد أبناء قبيلة «الأتمن»، تلك القبيلة الراحلة أبدًا، كان أنحف من جرادة عندما دخل، ومع رقي الغذاء، وتنوعه، ووفرته، بدأت أرطال سريعة الخطوات تغزو جسده، ثم ما لبث أن صار فتوة بين المرضى، يأكل من حصصهم بتكشيرة الخنجر ووخز العصا، وعندما أردنا إخراجه بالقوة، وجدنا سيفًا باترًا يتبسم في وجوهنا.

خطبة الجمعة

كان الإمام الطاهر واحدًا من الوجوه اللامعة في البلدة، عم لمعانه، وامتد حتى شمل القرى المحيطة بالبلدة، والتي تمت إليها بصلة القرابة أو النسب. لم يكن محليًّا من إحدى قبائل المنطقة، لكنه أيضًا مهاجر، شمالي، هاجرت جذوره واستوطنت منذ عهد، وبنت لها مجدًا تجاريًّا فخمًا اختص بتجارة المحاصيل والأطعمة وضروريات الحياة. ثم جاء الطاهر دارسًا للتجارة والفقه، ليحتل قدره كتاجر نهاري يبيع ويشتري ويربح ويخسر، ويخاصم التجار ويصافيهم، حتى إذا هلت الجمعة، وتوضأ الناس، وتعطروا واتجهوا إلى المسجد، احتل الشمالي منبره كخطيب فذ، تترقرق في كل عين دمعة لخطابته، وتخرج من عصيان القلوب تقوى، تظل ممسكة بالناس لا تذوي لعدة أيام.

كان بالبلدة ثلاثة مساجد.. شيدتها الدولة وجهود الأهالي، زودتها بأئمة ذوي أدمغة شبعانة ومستنيرين إذا ما قُورنوا بجوع الأدمغة المحلية، كان الطاهر مهاجرًا، وأزهريًّا، والآخران محليين تفقها على نفقة الجهد والعرق، مستعينين بكتب جلبوها من العاصمة، وبتفسيرات «الخلاوي» التي كانت منتشرة منذ عهد بعيد، وتخرج من صوابها وأخطائها كثير من أهل البلدة، لكننا استعذبنا خطبة الطاهر، ووجهه، وأشعاره، وحِكمه، وجيوش التقوى التي كان يحاصر بها قلوبنا وأعيننا. كنا من مصلي صفه الأول، ومن الباكين الأوائل، وامتد انبهارنا بالإمام إلى تجارته، فكنا نتزود باحتياج الحياة من محله العادي المغروس في

سوق البلدة.

ذلك المساء كان الصيف مرعبًا، الحرارة لا تقدر بدرجة، وعيادتي المسائية مشحونة بعشرات المتأوهين، والمستفرغين والممسكين على رءوسهم من فتك الصداع. كان موسمًا مرموقًا لطفيليات الملاريا، تجاوزت الفقراء، وسيئي التغذية، وأمسكت بخناق الأثرياء، وجيدي التغذية، ولم ينج منها حتى الطبيب الذي كان يرتعش وهو يعمل.

فجأة دخل الإمام، لم يدخل كما كان يدخل إلى خطبة الجمعة، بعمامة و«ملفحة»، ولسان خطيب فذ، لكنه دخل محمولًا على الأيدي والأنفاس والصياح، كان محمومًا بربع وعي، وربع وجاهة، وبلا لسان، عيناه تومضان وتنطفئان وعرق «الملاريا الشهير، يلحفه من الرأس حتى القدم، صرخ مرافقوه بأصوات بعيدة عن التقوى والتماسك..

- إلحق شيخنا، إنه يحتضر.

وقال هو بعد أن عارك نفسًا متمردًا:

- لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

عشرة أيام أنفقها الشمالي الخطيب في مستشفانا الفقير، تعرف على محاليل الأوردة، وعقاقير «الكلوروكوين»، و«الكينين»، و«الفانسيدار»، واطلع على شقاء المرضى والممرضين، وإرهاق الطبيب، ذاق فقر التغذية، وعكر الماء، وصياح النائحات على عزيز ذهب. كانت الحمى تأتيه وتذهب، والعرق يأتيه ويذهب، وفي لحظات صفائه كان يمشي بين الأسرَّة، يصلح حبالها المتهدلة، ويدعو ويعظ. وجاءت جمعة لم يصلها، لكننا صليناها في مسجد آخر، بإمام آخر وخطابة أخرى، ولم نبك، وعندما وقعت على أوراق خروجه، كنت أطلق لسانه الذي اشتقنا إليه واشتاقت إليه قطاعات كبيرة في البلدة.

جمعة جديدة في البلدة، كنا في شوق إليها، جلسنا في مواضعنا

القديمة، جهزنا قلوبنا للخفقان، وعيوننا للدمع، وانغرست نظراتنا في المنبر الذي كان ينتظر أيضًا.. ثم جاء الإمام. كان حيًّا ومنتصبًا، عمامته بيضاء ولحيته بيضاء، ولسانه نشيط ليس فيه أثر لوعكة، قال: عليكم بالأطباء إذا مرضتم.. عليكم بالأطباء.. ثم تحدث عن الملاريا ومضاداتها، والموت والحياة، وزيارة المرضى، وأشياء كثيرة لم تخرج من نطاق مستشفانا الفقير، كان يبكي وهو يعظ، وهو يفسر، وكنا نبكي من خلفه، وخيل إليّ للحظة أن الإمام ربما قرأ «كرنت» أو «ديفدسون» كتابي الطب الشهيرين، قبل أن يصيغ خطبته، وفي النهاية دعا كل صاحب علة أن يراجع الطبيب عسى أن يمنحه الله الشفاء.

في مساء اليوم التالي كانت عيادتي المسائية تضارع في ازدحامها عيادة البروفيسور «بشير أرباب» طبيب الأمراض الباطنية الشهير.

مقلب محلي

لم يكن «ضرار أبو آمنة» مواطنًا عاديًّا مدثرًا بفقر المنطقة، لكنه كان وجيهًا محليًّا له وسامة وتجارة، وأراضٍ، وبيوت وزراعة، وجيش من المحليين يتبع نظراته وابتساماته وعربته «المازدا» التي رفعت عن الوعورة بعجلات غير عادية. كان قد مضى إلى خلف الستين بعدة أعوام، ومضى أكبر أبنائه إلى خلف الأربعين بسنة، لكن حيوية في صوته وبشرته، وتشبعه بالحياة، كان يعود بذلك المضي إلى الثلاثينات بسرعة فائقة. حين عرفت أنه من قبيلة «الأريقا» قارنته على الفور بالعمدة «أوهاج دريري» كبير تلك القبيلة، وصاحب الكلمة الضخمة فيها، وجدته يتفوق على العمدة وربما يتفوق على عدة عمد لعدة قبائل في نفس الوقت، كان أكبر سنًّا، وأكثر ملاحة، نال شهادة في التدريس من أحد المعاهد التذكارية القديمة، وتزوج من قبيلة «الدناقلة» التي كانت في ذلك الوقت، وإلى وقت قريب، بريئة من مصاهرة الغرباء إلى درجة التشنج، حتى نحن أبناء عمومتهم «الشايقية» الذين شاركناهم في عذوبة النيل، ونخيله، وعرضة «الطمبور» وأنجبنا المغني العظيم «النعام آدم»، مثلما أنجبوا «إدريس إبراهيم»، كانوا ينظرون إلينا من أطراف أعينهم، ويكلموننا من أطراف ألسنتهم، ويقمعون أي عشق «شايقي - دنقلاوي» يتولد من جراء الجيرة. كنت أتعجب من وضع الوجيه «أبو آمنة»، سألته كثيرًا، وضحك كثيرًا، وأحال الأمر إلى القسمة التي كانت أقصر الطرق للرد على كل شيء مدهش. وفي أحد المساءات

المقمرة، والتي تجمع فيها كثير من الغرباء متحدثين ومنصتين، تطوع الدنقـلاوي العريـق «عبـده فوتي» الذي قذف به إلى البلدة نتيجة لخطأ مطبعـي فـي تنقـلات وزارة التربية، ليقطـع آلاف الكيلومترات، ويعمل مدرسًـا مفلسًـا، في المدرسـة الابتدائية، تطوع لإيضاح سـر المصاهرة «الأريقية- الدنقلاوية».. قال:

- صدقوني يا جماعة.. إن زوجة ضرار دنقلاوية «نصف كم».

ذلـك المسـاء جلسـنا فـي بيتـه الكبيـر، كانت المناسـبة سـحورًا رمضانيًـا اختـص الوجيـه المحلي بـه غربتنا، وانعزالنـا، وربما أراد أن يثبت لصهره اللئيم الذي وصف مصاهرته بـ«النصف كم» والذي كان بيننا، وشاركنا العدس والفول، و«الملاح» الأخضر في سكن الأطباء، إن بإمكانـه أن يتنـاول سـحورًا بنفـس مواصفات «الخنـدق» و«دنقلا» و«الغدار» و«حفير مشو»، أشهر بلاد الدناقلة. كانت المائدة بطول موائد مؤتمـرات عـدم الانحيـاز، والأصناف التي رصت عليها، رصت بإتقان «شيراتون»، «ميريديان» و«حياة ريجنسي»، وكان الوجيه المحلي نشطًا فـي الحديـث والمودة، والضحك، يغالب مضايقات «الربو» الذي كان مقيمًا في صدره ويشاكسه من حين لآخر، ويراقب بطرف خفي، كيف كانـت اليـد الجائعـة لضيفه «الدنقلاوي» تنتقـل من صنف إلى صنف، وتتوقف طويلًا عند «الكسـرة» و«العصيدة» وطبيخ «التركين» الشـمالي الشهير. الذي كان التذوق الشمالي يهيم به أشد الهيام.. والذي خمنت أن الوجيه المحلي إنما نصبه كشـرك، للإيقاع بتذوق غريمه. لم يكن المعلم المسكين يدري شيئًا، كان ضيفًا صائمًا يتناول سحوره بضراوة، وأحسب أنه أحس بتلك المتعة التي ربما ذكرته، زوجة طاهية، وأبناء بعيدين، وأشهرًا طويلة من رمضان، صامها في بلده البعيد.

انتهـى السـحور، ونضبـت المائدة، وابتدأنا الإطـراء، والمجاملة،

كان الوجيه يختصر إطراءنا إلى أن تحدث «عبده فوتي»، فتوقف عند إطرائه طويلًا.. قال:

- هل أعجبك الأكل حقًّا؟

- إنه رائع.

- وطبيخ «التركين»؟

- لم أذق في حياتي مثله.. من صنعه؟

- صنعته نصف الكم.. زوجتي.

وضحكنا كلنا.. لكن «العريق» لم يضحك.. خرج من بيت الوجيه مترنحًا، ولم يعد إلى ضيافته أبدًا.

أطلال وعثمان

كانت المسافة بين المدينة الساحلية، التي كنت أحد سكانها، وأحد العاملين في مستشفاها الكبير، ودحرجت منها إلى الريف، وبين البلدة البعيدة، ليست أكثر من مسافة بين حضر منتعش، وريف راكد، وضوضاء واختلاط، وهدوء وانعزال، ولؤم مدني مقنن، ولؤم ريفي بسيط وساذج. يحملنا شارع الأسفلت على جناحي نصف ساعة حتى «سواكن»، الميناء القديم الذي كان معافى لسنوات طويلة يستقبل، ويودع ويعيش ويتعايش، ثم مرض فجأة، وأصبح قبلة لعشاق الآثار، ومدارس الرحلات، والسياح الأجانب بكاميرات «الزينيث» و«اليوساكا» وعيون الهمج التي تلحس كل شبر فيه، وتضيفه إلى ذكريات الرحلات والمشقة، والثرثرة في الصوالين البعيدة.

كانت تتراقص في ذهني تلك الأغنية الباكية وأنا أدلف إليها من بوابة كانت مدخلًا أنيقًا في ما مضى.. والآن تقف مجروحة لتشحذ نظرة من أحد..

«صبَّ دمعي.. وأنا قلبي ساكن
حار فراقك.. نار يا سواكن»

وحين تعثرت بالحجارة والحصى، ووجوه «السواكنية» المتعبة، وجسد قصر «الشناوي» ذي الثلاثمئة وخمس وستين حجرة منهارة، استغربت كيف يبكي المغني.. وهو يرحل عن بقعة لا يمكن لمحبوبة عاقلة أن تبقى بها بأي حال من الأحوال..

من «سـواكن» تحملنا الوعورة على ظهر سـبع سـاعات عجاف حتـى البلـدة البعيـدة، كنـا نخشـى التوهـان والعطش، وقطـاع الطرق، نحمل أربعة إطارات احتياطية، وبرميلًا من الماء، وخفقانًا دائمًا حتى نصل. وعلى الرغم من كل ذلك كان ريفيو المنطقة يذهبون ويتوهون، ويرجعون، لكن «عثمان إدريس» لم يذهب إلى المدينة أبدًا.

كان في الرابعة والعشرين، يتيمًا وفقيرًا، نجا من السل، و«الأميبا»، والأناقة، والتعليم النظامي، وكان يمكن أن ينجو من الحب، والسهر، وإيقـاد الدمـوع، لـولا أن إحدى الممرضات رجمتـه بـ«كيوبيد» قوي، وحلفـت ألا تتزوجـه إلا إذا قـرأ وكتـب، وتأنـق، ونظـم الشـعر أيضًا. وجدناه عاملًا في سـكن الأطباء، وتركناه كذلك، وكان أكثر ما يعذبه هو بلوغه سـن الشـباب من دون أن يعرف كيف تتمدن المدينة.. كان يستنشق الوصف وهو واجم، ويجد في أطباق «المخبازة» المكونة من الدقيق والسكر والموز، والتي يجلبها البعض من المدينة وهم عائدون، لذة غير اللذة التي ملت عصيدة الدخن، والكسرة وما شابه ذلك.

قلت له: ولكن لماذا لم تذهب في كل تلك السنوات.. والناس يذهبون.. ويعودون.

قال: إنهم يملكون «الكاش»، وأنا لا أملك شيئًا.

وفـي إحـدى المـرات قـررت أن أعطيـه «الـكاش» وأطلقـه.. ثم عدلت فكرتي، وقررت أن آخذه معي.

تأنـق الريفـي بثيابـه اليوميـة، لكنها مرت بالغسـيل، والكي، ربما لأول مرة منذ أن خيطت، مررنا بوعورة الساعات السبع، وكان صامتًا، شيء عجول في صمته كان يومض بين حين وآخر، وحين دخلنا إلى سواكن من ذيلها، واتضح البحر، هتف الريفي مأخوذًا.. يا الله..

تلك اللحظة بدأ انبهاره، واستمر يتورم حتى دخلنا المدينة.

سبعة أيام أنفقها الريفي في ضيافة الحضر، دخل سينما «الخواجة» وسينما «الشعب»، وحديقة «القرشي»، تسوق من السوق، وأكل «المخبازة» حارة في منابعها.. زار المستشفى الكبير، ورأى ممرضات أرقى و«أشيك»، وحين انتهت مهمتي، وقررت العودة إلى البلدة، بكى بحرقة.. قال.. هل تأخذني في كل مرة يا عمي؟.. قلت: نعم. وكان أول شيء فعله حين وصلنا البلدة هو أن طلق حب الممرضة الريفية.. إلى الأبد.

الممثل

كان قد اكتسب رونقه الاجتماعي في البلدة، من كونه الوحيد الذي مثل دورًا هشًا في إحدى المسرحيات الهزلية على خشبة مسرح المدرسة الابتدائية المتهالك. لم يكن ممثلًا أبدًا، ولا خطر بباله أن يؤدي دورًا لعمدة ريفي، يتوسط بين متعاركين لمدة خمس دقائق على المسرح ثم يمضي، وكانت فكرته عن المسرح هي نفس فكرة الريفيين، يعتبرونه تهريجًا، و«لخبطة» وصياعة لجمع المال، لكن فرقة مسرحية زائرة، بأفراد متحمسين، ونصوص حادة، واستعداد متهور، أصرت على تغيير تلك الفكرة، عندما طافت بالريف رافضة حتى أن تشرب الماء على حساب أحد. في البلدة مرض عمدتهم الممثل فجأة، مازحته «ملاريا» حدودية، حولت حماسه إلى رقدة، وكان لا بد للعراك الذي ينشب داخل النص أن يحسم بوساطة عمدة ما، حتى يظل النص واقفًا على قدميه. طافوا بالبلدة مستخدمين مكبر الصوت الذي يصرخ بحجارة «الإفريدي»، رصدوا ثلاثين جنيهًا، وعلبة من سجائر «البنسون آند هدجز»، وإقامة مدفوعة الأجر لمدة يومين في فندق «البرلمان» العاصمي العاري من النجوم. كان إغراء فذًا، وكان يمكن للبلدة كلها أن تنقلب إلى عمد ممثلين لخمس دقائق، لكن الفرقة فوجئت بأن لا أحد قد تقدم سوى «عزوز»، فأضافوه إلى نصهم، رغم أن وجهه كان مشردًا، وأداءه لدور العمدة في «البروفة» النهائية كان مسكينًا وناحلًا.

حين جئت إلى البلدة كان «عزوز» ممرضًا في المستشفى الفقير،

حصل على تلك الوظيفة بطريقة أو بأخرى، وقد مضى أربعة عشر عامًا منذ مَثَّل، ودخن «البنسون»، وأمضى يومين هزيلين في «البرلمان»، تعرف فيهما على لصوص، وسماسرة، ومهربي سلع غذائية، وعاد لينغرس في البلدة، عاطلًا بالنهار، ونائمًا بالليل، ومقتنصًا كل فرصة ليحكي عن عموديته القديمة.

تجمع الممرضون، والموظفون لاستقبالي، وكان بينهم العمدة الممثل، كان لافتًا للنظر حقًّا، زيه الأبيض أكثر بياضًا من أزياء الآخرين، ومشيته فيها زيادات غير ضرورية، حتى وقفته، ومصافحة يده، وهو يقف، ويصافح، كان فيهما غرور غير أصلي. عرفني المستقبلون بأنفسهم بأصالة طبيعية، كان فيهم آباءا وأبناء، وأجداد، وعندما جاء دور العمدة الممثل.. قال أنا الفنان عزوز علي.

ظننته مغنيًا على شاكلة «حسن حلوف» الذي كان ممرضًا في المستشفى المديني، وبهدل آذاننا في حفلات الاستقبال والوداع، والتكريم، لدرجة أن الإدارة أنذرته رحمة بآذاننا، لكن أصواتًا هامسة.. وضحت لي الأمر.. عزوز ممثلا مسرحي مرموق.

احتفيت به احتفاءً خاصًّا، كان وجود مسرحي مرموق في بلدة مغمورة كتلك يضفي على الليالي المعذبة هوسًا أخّاذًا، وكان يمكن لاكتئابنا الذي لا بد منه أن يضحك وينتشي في وجوده. دعوته إلى الغداء في سكني الريفي، وبدأت أصادقه.. سألته:

- هل تعرف الفاضل سعيد؟ «كان الفاضل سعيد، ولا يزال، واحدًا من الذين أضحكوا الوجدان القومي.. حتى أبكوه.. واحدًا من ممثلينا الكبار..».

قال: أخ عزيز.

- والسني دفع الله؟.. «السني دفع الله.. واحد من فنانينا الذين

يعرقون فنًّا.. يأكلون فنًّا.. ويشربون فنًّا..».

قال: التقيته في فندق «البرلمان» في العاصمة.

- وأحب الأدوار إلى نفسك؟

- دور العمدة حين يفض المنازعات.

كانـت البلـدة ممعنـة في «التريـف»، كانت الأخبـار لا تبرد على لسان قط، تتقافز بين الألسنة، وهي ساخنة، في عصر يوم الغداء نفسه، جاءتني الأخبار، وعرفت قصة العمدة الممثل.

ملازم «تيجريني»

كان من مواطني «الخرطوم بحري»، شدته «قيافة» العسكريين، ونجومهم، ونياشينهم، واحترام المجتمع المدني لحضورهم، وغيابهم، وهو شاب ثانوي، أكمل الشهادة الثانوية على عجل، والتحق بكلية الحرب، ليلحق بهؤلاء «القيافات»، ويلتهم نصيبه من النجوم، والصقور، والنياشين، واحترام المجتمع. ومثلما كانت تأخذنا الخيالات، ونحن طلاب في دراسة الطب الوعرة، ونحلم بالحياة المرفهة، بمجرد إنهائها، ثم تجهض تلك الأحلام بمجرد الركوب في باص الوظيفة، والاضطرار إلى الاستلاف حتى يظل القميص مكويًّا، والحذاء لامعًا، والجسد معطرًا، وجد العسكري الحالم، على كتفه نجمة، وفي جيبه مرتبا ليومين فقط، ووجد كيانه المتحضر مرميًّا في بقعة سحيقة، مجرد رتبة صغيرة في سرية حدودية. قد تؤكل «سندوتشًا» إذا ما لعلعت الحرب. كان أقوى منا كثيرًا، وأكثرنا طردًا لوساوس البعد المعذبة، جاء يحمل مسجلًا يابانيًّا.. وكرتونة من حجارة «الإفريدي»، ومئتي شريط غنائي، وعشرات النكات والضحكات.

كان الوحيد من موظفي الحدود الذي أجاد لغة «التيجري» لدرجة أن أغنية حماسيةً أو مثلًا شعبيًّا، أو حتى نكتة ضاحكة من تلك اللغة، لم تكن لتغيب عن إجادته أبدًا.. وكنا في أوقات تدفق الجرحى اللاجئين من جراء حرب التحرر الإريترية آنذاك، نلهث إلى خبرته، نوظفه مترجما محليا لانتزاع الشكاوى، ووصف الآلام،

ونقـل تعليماتنـا العلاجيـة بدقـة. كان الملازم في حـرس الحدود يبدو مسـتمتعًا، يسـأل عن سـيجارة، وكوب من الشـاي، ثم يلقي بمساعدته التـي كانـت غاليـة. وفي إحدى المرات اسـتقبلنا جريحًا بنصف وجه، ونصـف لسـان، وبـلا قدميـن، كان يبـدو ميتًا من شـدة اليـأس، صدنا بصمـت محكـم، وملامـح مجهـدة، ونحن نحـاور جروحـه، ونحاول إعداده، ليمضي في الحياة مبتهجًا بنصيبه. اسـتعنا بـ«الملازم».. جاءنا على عجل، كانت في يده سيجارة مشتعلة، في فمه ابتسامة، وفي حلقه أغنية عطشى لـ«علي إبراهيم اللحو» المغني القديم المتجدد.. أمسك بالجرح النفسي للجريح، مرره على نصف ساعة من اللغة «التيجرية» الصافيـة، ثم ابتسـمت ملامح المصاب، غنـى وتحدث، وتجاوب. كنا نسـتمع بـآذان جاهلـة، ونبتسـم بأسـنان أكثر جهلًا، وننقـل نظراتنا بين المـلازم، والجريـح، وحوارهمـا.. ولا نحـاول أن نلتقـط.. كان الأمر معقدًا.. وغامضًا. واكتشـفنا بعد ذلك ونحن نضحك أن تلك النصف سـاعة «التيجريـة» كانـت درسًـا في الديـن والدنيا.. والإيمـان بالقضاء والقدر.. ونثر عدد من الآمال المستقبلية.. التي لم يكن الملازم نفسه يملك تحقيقها.

قـال ضاحـكًا: لقـد وعدته بمبلغ من المـال، وزوجته من إحدى قريباتي.. ووظفته مزارعًا في مزرعتي الكبيرة في «الخرطوم بحري».

أشهر من البؤس الضاحك، صاحبنا فيها الملازم العاصمي، أحبته البلدة بجنون لدرجة أن عشرات الأسر المحلية عرضت عليه تزويجه بلا مهر، ولا «شـبكة»، وحاول أحد أثرياء الزراعة اسـتبدال عدة أفدنة بعسـكريته، وإبقائـه فـي البلدة، وكان قادته الذيـن يمرون متفقدين من حين لآخر، يعيبون عليه كثرة المزاح، وزيادة الوزن، وإهمال الصرامة العسـكرية، حتـى إن بعـض جنـوده كانوا ينادونه بالاسـم المجرد دون

أن يلقوا حتى نظرة عابرة على رتبته.. كان يتسلم تأنيبهم، يدخله في مزاجه الصافي، ويعيده إليهم مزحة تفتك بهم، وبتأنيبهم، وصرامتهم المخصصة من أجله. وأخيرًا كان لا بد أن يذهب، ذلك العرف الخدمي المسمى بالنقل، والذي عانينا منه جميعًا.. جاءه راكضًا.. لم يكن مثل النقل المدني الذي يأتيك متمهلًا.. يخاطبك برقة، ويمهلك حتى تسدد ديونك، وترتب حقيبتك، وتبكي في أحضان أصدقائك، لكنه نقل قاسٍ.. أشد قسوة من الزي «الكاكي» يخاطبك بعنف، وينتزعك من طاولة الإفطار، ويجعلك تودع أصدقاءك وأنت معلق في عربة «مجروس» بلا قلب.

أبو نارو

لقد عاتبني الكثيرون على إيغالي الشديد في المحلية، وكتابة لوحات شديدة الخصوصية والتعقيد، واستحضار أسماء لأشخاص، وقبائل، ومأكل ومشرب، لم يسمع بها حتى ساكنو أواسط السودان. وفي غمرة تحمسهم لقراءتي، اقترح عليَّ البعض تبسيط قواعدي الكتابية، أو الكتابة بطريقة «مونديال القرن» التي يفهمها مواطنو جزر «الأنتيل»، وقرية «أم كدادة» في غرب السودان، جنبًا إلى جنب مع مواطني باريس وروما ولندن. وأقول: إن المحلية عندي جزء من التركيب الداخلي، وهي النار التي تركت عليها تجربتي حتى أوشكت أن تنضج، ولا أستطيع أن أجد اسمًا غريبًا، أو طقسًا، أو عادة، دون أن أوظفها.. من هذا المنطلق، كتبت الرواية، والشعر، والمقالة.. ومن هذا المنطلق أيضًا، أكتب اليوم عن «أبو نارو».

كان الاسم شائكًا جدًّا، ولعله واحد من الأسماء التي لا يحملها إلا اثنان أو ثلاثة في العالم كله. لقد درج الناس في بعض الأحيان على إلصاق الأبوة بكثير من الأشياء المادية والمعنوية، وتسمية أبنائهم بها.. وذلك كناية عن التفخيم.. وربما إحراج المجتمع بأسماء ضخمة ومعقدة تجبره على احترامها.. ومثال على ذلك تجد «أبو العز»، و«أبو سيف»، و«أبو الخير».. وقد قابلت مرة مواطنًا اسمه «أبو حس»، وكان «حسه» أي صوته خافتًا لدرجة أنني ألصقت أذني بفمه حتى أتعرف على اسمه.. لكن أبو نارو الذي لم يكن «أبو نار» أو «أبو النار».. كان

بعيدًا عن كل تقبل عادي، فقد كان الممرض المحلي أبًا لناره الخاصة.

منذ الوهلة الأولى لفت نظري أبو نارو.. ليس بسبب شكله ولا زيه، ولا اسمه حتى، لكن بسبب تظلم مكتوب على ورقة محلية صفراء.. فاجأني به وأنا غريب لم أعثر بعد على مكتبي.. وأدواتي ومسئوليتي، والشجاعة المطلوبة لفض أي نزاع. كان تظلمًا يشكو فيه الممرض تخفيض رتبته من رئيس لوردية ممتلئ، ومهاب، إلى ممرض عادي لا يلفت حتى نظر مريض في عنبر. من دون وجه حق. وقد ختم التظلم بعدد غير معقول من المهام الجسيمة التي أداها سنوات طويلة، بطيب خاطر، كما لم ينس أن يذكر نسبه إلى أشراف المنطقة.. ونظَّارها.. وعمدها.. وكل وجاهة فيها. واكتشفت أنه تظلم قديم كتب منذ أكثر من عشر سنوات، وظل الممرض يطوف به على كل مسئول جديد أملًا في إنصافه وإعادته إلى رئاسة الوردية.. وربما ترقيته إلى رئاسة عنبر.. في لحظة غربة وضعف، وقبل أن يستريح المسئول على ألسنة الواشين.. الذين عاصروا الحكاية ساخنة، ولم يتركوها تبرد.

كان الممرض المخفض رئيسًا لوردية بالفعل.. كانت على كتفيه أشرطة حمراء، وكان في مشيه في الريف شيء من صلف الوجهاء.. وكانت له في قصص الحب المحلي المرددة قبل عشر سنوات أكثر من اثنتي عشرة قصة.. كلها تخلخلت بسبب صلفه وقرصنة عينيه.. وكان ذا وجود فذ في حفلات الليل، وضرب العكاكيز، وقسم الشرطة، ومجالس التأديب، وفي أحد الأيام أجريت لمريض مصاب في الرأس عملية لتفريغ ورم دموي، ثم جاء «المخفَّض» بجفون متورمة، ووعي مشتت، وإصابة في يده من جراء عراك ليلي.. اقترب من المصاب، وأوصل المحلول الذي يفترض أن يكون وريديًّا.. إلى أنبوب التفريغ في الرأس.

قلت لـ«أبو نارو».. نفس الكلمة التي ظل يسمعها لعشر سنوات متتالية.. وكان يأمل أن تستبدل في كل مرة.

- آسف.

إزعاج ريفي

كان المزعجون في البلدة بلا عدد، وكانوا متمرسين في الإزعاج لدرجة أنه أصبح جزءًا من ممارساتهم اليومية، وكان إزعاجهم منصبًا على الغرباء بصفة خاصة، يراقبونهم في النوم واليقظة، والسفر والعودة.. يجردونهم من أقنعة المسئولين التي يرتدونها، ويصادقونهم عنوة وبكسر الذراع. كانوا كبارًا وصغارًا، ومتوسطي عمر.. رجالًا ونساءً، بعضهم أزعج غرباء قدموا إلى البلدة في الستينيات والسبعينيات، واستمر إزعاجهم حتى قدمنا نحن في أواخر الثمانينيات. كان لضباط الخدمة الإدارية المغمورين في الريف نصيب من ذلك الإزعاج، لضباط حرس الحدود، وضابط الشرطة، والمعلمين الابتدائيين، لكن الأطباء كانوا مثقلين بالنصيب الأكبر.

من هؤلاء المزعجين كان «أدروب البطري» الذي عمل ممرضًا غير مؤهل في صحة «الحيوان»، أو الشئون البيطرية، ومنها اكتسب لقبه البيطري، ثم تقاعد بضغط من نزواته الغريبة.. كان طويلًا، وماردًا، وقليل الكلام، لم تتعد اجتماعياته «بروش السعف» المدلوقة في حانات الريف، ولم يضفر لسانه جملتين مفيدتين أبدًا.. كان في أواخر الخمسينيات.. شعره الأبيض ينطق بالعمر، وجسده المارد يحاول أن يقمع نطق الشعر.. وكان إزعاجه يتمثل في الجروح اليومية والإصابات من جراء عراك سكران، أو السقوط في حفرة ريفية، كنا نصحو فزعين لإسعافه.. ننفق ثلث الليل في ترتيق رأسه ورجليه، وبطنه، وأذكر أنه

سقط مرة في بئر مالح حفره بعض العطشى ثم نسوا ردمه، وكان إسعافه في ذلك اليوم أقسى إسعاف يكلف به طبيب.. كان إسعافا لغريق وجريح، وجسد مترع بالكحول. كنت أتوقع إصاباته يوميًّا.. أجهز غرفة العمليات قبل النوم.. وأقطع نومي خصيصًا من أجله.. وكنت على صواب في كل يوم. وكان بعض الزملاء السابقين لي في البلدة قد اقترحوا على الشرطة المحلية استضافته في خشونتهم من مغيب الشمس حتى طلوعها.

وأدى ذلك الاقتراح بعد تنفيذه إلى وقوع الضابط الوحيد للشرطة وعساكره المحليين تحت طائلة ألسنة الحريم.. إذ قدمت إلى القسم أمه وزوجته وأخواته.. وصنعن ليلًا صارخًا وشاتمًا ومبعثرًا للتراب لم ينته حتى أُخلي سبيل «البطري» ليذهب إلى نزواته وإصاباته.. ثم إلى بيته في النهاية.

من هؤلاء المزعجين أيضًا مزارع من قبيلة «الحباب» التي كانت إحدى القبائل الشبعانة في البلدة.. كان إزعاجه قد خصص لي وحدي.. فقد شاء الحظ أن يرزق صبيًّا في أثناء وجودي في البلدة.. بعد زواج دام أكثر من نصف قرن. أسماه باسمي، ووضع على عينيه نظارة من البلاستيك، وعلى رقبته خيطًا من الدوبارة يشبه سماعتي الطبية، وجعل يحضره متبسمًا إلى بيتي وعيادتي ومستشفاي يوميًّا.. تعلم الصبي الجلوس في بيتي.. والحبو في عيادتي، ونطق بأول كلمة دنيوية.. وهو في مكتبي بالمستشفى. وكنت كلما هممت بأن أضع حدًّا لذلك الذبح الغريب.. يقرصني اسمي الذي يدثر به الصبي.. كعنوان لاحتفاء الريف بالغرباء. فأمد صباحي ونهاري وليلي للذبح راضيًا.

وكان أعنف هؤلاء المزعجين جميعًا.. وأطولهم نفسًا، مزعج «جعلي»أ استوطن بالبلدة وهو طفل، عمل في تجارة والده، وأخذ

من تراث قبيلته المشـهورة بالمروءة في الشـمال.. كرمًا عنيفًا.. أدواته الحلـف بالطـلاق، بضرورة وبلا ضرورة.. كان يزورني يوميًّا، يدعوني إلى الغداء والعشـاء وهو يحلف طلاقًا، مما يضطرني إلى قبول كرمه العنيف.. ولم يخرجني من دائرة هذا الكرم سـوى «ملاريا» حدودية، كانـت أعنـف مـن قسـمه بمراحل.. وفي يـوم تكريمي بمناسـبة انتهاء عملي بالبلدة.. طاف «الجعلي» بالبلدة كلها.. حلف طلاقًا على الكبير والصغير، ورص البلدة في مائدة عشاء لم تحدث من قبل.

الغَضبة

عندما قدمت إلى البلدة البعيدة، لم يخبرني أحد من الذين سبقوني بالعمل هناك عن رياح «الإيتبيت» أبدًا، ولعلهم إن أخبروني كنت تعللت بمئة عذر.. وأنفقت خدمة الشدة المفروضة على وظائفنا في أي بقعة أخرى بعيدًا عن ذلك الموت الغريب. منذ قدومي كنت أعرف أن ثمة رياحًا ستغضب في يوم ما، وبحسب قراءتي لشاعرنا العظيم صلاح أحمد إبراهيم، كنت أظن أنها رياح «الهبباي» التي وردت في أحد دواوينه، لكنني عندما احتككت بالأمر، وتبعثرت في وسط الرياحين.. إيتبيت الصيف، وهبباي الشتاء، أيقنت أن شاعرنا العظيم عندما تحدث عن غضبة الهبباي، إنما كان يقصد «الإيتبيت»، والذي إذا قورنت غضبته بهبباي الشاعر، وجدت الأخيرة مجرد ضحكة عادية لا أقل ولا أكثر.

كان المحليون يحبون هبوب «الإيتبيت» بجنون، يتغزلون فيه بوقاحة «تنرفز» الغرباء، ويقضون ثلاثة أرباع العام وهم مرهفو الحواس ينتظرون غضبته، فهو في اعتقادهم الذي ورثوه.. الراعي الذي يملك عصا النهر الموسمي، يهش عليه من منابته في إريتريا حتى يلقي به على دلتاهم، فيزرعون ويحصدون.. وهو أيضًا الحكيم البارع والمتمرس الذي يشفي الأمراض والخمول و«الزهج» بعيدًا عن عقاقير الحكماء المتمدنين المتفلسفين.. وأذكر أن أحدهم قال لي مرة وهو يتبسم.. قريبًا سيأتي الدكتور الكبير ليعالجنا بعيدًا عنكم.. ولما

كانت فكرتي عن طب «الإيتبيت» معدومة في ذلك الوقت، فقد ظننت أن خبرًا تسرب قبل أن يصل إلينا، وأن طبيبًا حقيقيًّا وكبيرًا سيأتي إلى المنطقة.

كانت الثامنة صباحًا بتوقيت البؤس والملل عندما غضب «الإيتبيت».. كنت قد ارتديت مهام وظيفتي وأخذت الطريق إلى المستشفى عندما غضب، كانت غضبة دسمة ومميزة، لم تكن تشبه غضبات الزلازل، ولا الأنهار، ولا الحروب، ولا غضبات شعوبنا عندما تغضب.. فجأة ضاع كل شيء.. ضاعت الهيبة و«القيافة» والرؤية إلى أبعد من الأنف، ضاعت الشمس والأشعة ومعالم الطريق! وبدا المستشفى الذي يشبه سكننا ويجاوره جوارًا حميمًا! لدرجة أننا كنا نسمع تأوهات الطلق، وهلاويس الحمى، وطرقعات العلكة على أفواه الممرضات، كأنما زحزح عنه بعدة أميال. تمسكت بالطريق الضائع، ووصلت، وكانت في انتظاري مفاجأة، عشرات الممرضين المحليين تجمعوا في ساحة المستشفى، كانوا يعانقون بعضهم بعضًا، يباركون الغضبة بفرح، لمحوني فاندفعوا باتجاهي، كنت مبعثرًا، ومشوشًا، ومصعوقًا، وأحمل في وجهي أنفًا بالكاد يشم، وعينين بالكاد تبصران. قالوا: مبروك الإيتبيت.. مبروك الإيتبيت.

في ما تلا ذلك من أيام، انغمست في ضراوة الهبوب، اكتسبت عيناي لياقة الرؤية في أقصى درجات انعدامها! اكتسب أنفي لياقة الشم، وقدماي تدربتا على ابتكار الطرق حتى وهي عصية الابتكار. كنا نأكل في أطباق مغطاة، نرفع الأغطية بالقدر الذي يسمح بدخول اليد وخروجها.. نفتح أفواهنا بحجم اللقمة ونغلقها قبل أن تتحول اللقمة إلى تل من الرمل. وكنت أذهب إلى عملي بنفس بعثرتي التي نمت بها.. وقمت بها.. جلباب متسخ، وعمامة متسخة، وغيظ

لا ينطفـئ. لـم يكـن أحد يلحظ شـيئًا، ولا انحسـرت هيبتي بانحسـار مظهـري.. اكتشـفت أن كثيرًا مـن الموظفين الغرباء في وظائف أخرى مثل الإداريين.. والكتبة ومشرفي التعليم، وحتى ضباط حرس الحدود، كانـوا يمارسـون وظائفهـم وهـم مكتئبون فـي أسـرَّتهم.. وبالطبع كان اكتئابنا أشدأ لأننا كنا مضطرين لمصارعة الغضبة في أي وقت.

رجل مهم

لـم يكـن «إدريس سـعيد» مواطنًـا مهمًّا بمقاييس البلـدة البعيدة، فهـو لـم يكن طبيبًـا ليصارع أمراضها المفتولة العضلات، ولا مدرسًـا لينتـزع نبتـة الأميـة مـن عقـول التلاميـذ، ولا ضابطًـا في الشـرطة، أو حرس الحدود تسبقه نجوم وصقور، ومشية خشنة، وتدلق عليه القبائل احترامات واسعة الخطى، ولا تاجرًا من أمثال «عبد الله الحداد» تدين له البلدة بمأكلها وملبسها، وسدادها المؤجل حتى موسم الحصاد، ولا امتلك مخبزًا ينتج رغيفًا يكسـو وجبة الفول الشـعبية بالشحم واللحم، والدسـامة، ولا عمـدة قبليًّـا يحظى بهيبة وعمامة مميزتين، ويسـير في البلدة وهو مبجل. ولا مقاولًا محليًّا يحول الطين الرخو إلى مسـاكن لإيـواء نـزق البلـدة وصلاحها، ولا حتى مجرمًا من طراز النشـال «ود عطبرة» الذي كان يحرك الجمود من حين لآخر في السـجن المحلي الـذي كان فقيـرًا في معظم الأحوال، تسـكنه تذكارات الفحم، وأسـرة الحبال، وتحرس حيطانه الطينية عدة بندقيات طاعنة في السن، كانت أهمها بندقية المهاجر الشمالي «فتح الرحمن».

كان مـن أبنـاء قبيلـة «البني عامر» تلك القبيلة الحدودية الكبيرة.. التي تضع رأسـها على وسـادة الفقر في البلاد، وقدميها على وسـادة الحـروب فـي «إريتريا».. كانوا مزارعين ورعاة، وتجارًا برءوس أموال محبطة، مر عليهم التعليم الابتدائي والمتوسط، فالتقط نفرًا منهم، ومر علـى هـؤلاء النفـر التعليم الجامعي، فالتقط أفـرادًا يعدون على أصابع

اليد.. وأذكر أن واحدًا من هؤلاء كان يعمل خارج البلاد، وعدما قدم إلى البلدة في زيارة سريعة لم يستطع أن يخفي استياءه من غلبة الطين والغبار والحر، والليل الداكن إلا من بصيص أضواء الفوانيس. كان إدريس سعيد من النفر الذين تكفل بهم التعليم الابتدائي، ووظفهم في وظائف تتيح لهم ارتداء البناطيل والقمصان، والساعات «الرومر» و«السيكو»، وربما إحاطة العنق بمنديل نظيف، فقط لا غير. كان كاتبًا في المؤسَّسة الزراعية.. يكتب بكثافة بمعدل ثلاثة أشهر في العام، ويقضي البقية الباقية من العام مستمعًا في المجالس، أو مستدينًا في السوق، أو مأمومًا في الصلوات، أو مريضًا في مستشفانا الفقير.

كان يزورنا كثيرًا يشكو من ألم الظهر، وقسوة الكتابة بأصابعه، وعدم تمكنه من السفر إلى المدينة، والجلوس على مقهى «رامونا» مدخنًا الشيشة، وملتهمًا شرائح «الباسطة» و«الكنافة». كنا نصف له المدينة وصفًا مفزعًا، نحدثه عن حوادث الطرق، وحرائق الغاز، وإمكانية أن تنشل ياقة قميصه وهو يرتديها.. كان يصرخ بإصرار.. لا بد أن أذهب.. لا بد أن أذهب.

وذهب إدريس سعيد..

لم يذهب كأي ذهاب ريفي.. يتسكع و«يتمنظر»، وينخدع، ويشتري، وتنضب جيوبه، ويعود، لكنه ذهب ذهابًا مبجلًا، ذهابًا لم يخطر على بال أحد أبدًا.. كان نفس الذهاب الذي ذهبه من قبل المساعد الطبي «أبو طاهر» ابن قبيلة «البجة».. عندما عين محافظًا بنفس محليته، وصندله الـ«تموت تخليه» و«سفَّة التنباك» المقيمة في فمه.. فقد عين «إدريس سعيد» منسقًا عامًا للإغاثة في إقليمه.. لم يسأل أحد كيف ولماذا، لكن أجنحة الوظيفة «النسرية» حملته بعيدًا وجديدًا..

التقيته في زيارة إغاثية للبلدة.. جاءوا يتفقدون ويحصون.. ويعيدون غربلة المستحقين.. كان متحدثًا ولامعًا.. أسود شعر الرأس والشارب، يضع على عينيه نظارة طبية بمواصفات «كارتير» وفَرْوًا أبيض على مقعد سيارة «اللاند الكروزر» المهداة من معتمدية «الرفيوجيز».. أدركتنا صلاة المغرب، فصلى بنا إمامًا بصوت جديد ونقي.. جلسنا للحديث فجعلنا نستمع أكثر مما نقول.. قلت له:

- هل ما زلت تشكو من ألم الظهر؟

قال:

- لا.. لقد شفيت.

- وقهوة «رامونا»؟

- جلست فيها.. وفي مقاهٍ أفضل منها.

تركته لأنتبه للالتفاف غير العادي ودعوات الغداء والعشاء.. التي كانت تنز عرقًا في حضرة الزائر غير العادي للبلدة «إدريس سعيد».

رزق بعيد

لـم تكـن التربـة التي غرسـت فيها البلدة البعيـدة صالحة لقرض الشـعر أو اللعلعـة بالغنـاء، أو حتى المسـاهمة فـي أن تنمو قصة حب خيالية حتى نهايتها الممكنة.

كان الغبـار الوعـر يُكَثِّـف الأصـوات في الحناجـر، لم يكن ثمة شـاعر، ولا طبال.. ولا مغنٍ ذو صوت شـجي، ولا حتى حلقة للذكر يتأرجـح فيهـا الذاكـرون.. كنـت أصـادف فقـراء يمشـون ويجلسـون، ويموتـون، أصـادف تجارًا شـماليين، يلحسـون غنـاءات الحصاد حتى تجـف، ويمـلأون دفاتـر الـورق بالديون المؤجلة في مواسـم أخرى.. كنت أصادف نساء هشات ونحيفات ولهن سعال مدمر تحس به أكبر مـن طاقـة الرئتيـن، وأطفالًا بكائيـن وعصبيين يمصـون حليب الإغاثة المعالج واللزج وينتظرون لا شيء. وحين حدثوني في إحدى المرات عن شـاعر محلي فذ يسـوق اللغة كما يسـوق راع أغنامه، ذهبت إليه، ووجدتني أمام مخرف أخرق.. رث اللغة، يشبه الوجه بالقمر، والشعر بالليل، والعيون الواسعة بالبحر.. حتى آلة «الربابة» المحلية، التي كان يستخدمها في تحلية أشعاره.. كانت بلا صوت. وفي أحد الأيام ودون موعد سابق، جاء «إمام عباس» إلى البلدة.

كان أحـد مغنـي المدينـة المعروفيـن، له صوته الخـاص، وهيئته الخاصـة، وأغنياتـه الراقصـة والباكية، وقسـط وافر مـن معجبي الفراغ والملـل يزحفـون وراء صوته.. ويطاردون حفلات العرس التي يحييها

من مكان إلى آخر.. كان نجارًا بنفس موهبته الغنائية.. بارعًا في فرك الخشب.. وصياغة الغرف والخزائن، وتحويل خشب «الزان» القاسي والصلد إلى خشب أليف جواد بالمقاعد والأسرة وغرف النوم والجلوس. كان يغني كثيرًا ويعمل قليلًا.. يتوقف المنشار بين يديه حين ينغزه لحن، وكان في بعض الأحيان يقضي أيامًا طويلة بلا نجارة، في التجهيز لإحدى الحفلات القادمة.. وأذكر في بداية تعرفي عليه أن كلفته بعمل عدد من المقاعد والطاولات لبيت عائلتي، فسلمني إياها بعد ست سنوات من اللهاث والملاحقة، وبعد أن انقطعت حاجتنا إليها.

تلك الأيام كان بالبلدة البعيدة بعض الخير، كانت الخراف تُباع برخص التراب، والدجاج بأرخص من رخص التراب، والخضار الموسمي يلقى على الطريق وهو نضراً وسعيًا وراء ذلك الخير القليل.. جاء المغني «إمام عباس».

كان قد رزق حديثًا بتوأمين ذكرين، وأراد أن يذبح لهما أسوة بما هو متعارف عليه.. أحرجته ميزانية متأرجحة وهو يتسكع في سوق المواشي في المدينة.. ومن ثم جاء إلى البلدة ليأخذ من رخص التراب. كان منظره غريبًا وهو يقف بباب بيتي.. نفس المغني الأسمر الأنيق لكن غبار السفر والبلدة أكل ثلثي تلك الأناقة.. وكان أغرب ما فيه أن آلة للعود ملفوفة بحذر كانت تتأرجح بين يديه. ظننته جاء ليحيي حفلًا ريفيًا لم نسمع به، لكنه نفى ذلك، وعندما سألته عن آلة العود التي يصحبها.. قال.. صحبتها عسى ولعل أن أعثر على حفل بلا مغنٍ، وأعود من رحلتي كسبان.

أرحناه عندنا، جهزنا له خرافه الاحتفالية، وأعادت إحدى عاملات المستشفى إليه أناقته المأكولة بعد أن غسلت ثيابه وكوتها..

وحين استعد للسفر جاءته كارثة الرزق تركض ركضًا.. كانت البلدة قد سمعت بوجوده.. وبناءً على ذلك الوجود الذي لن يتكرر قريبًا، قرر بعض «العرسان» أن يسرعوا بزواجهم المؤجل.. جاءته خمس حفلات عرسية دفعة واحدة ولباها كلها.

خمسة أيام قضاها المغني في البلدة البعيدة.. يأكل وينام ويغني، ويعد جنيهات الورق الملونة، طاف أسبوع الولادة بتوأميه.. بلا ذبح، أزعجت أسرته شرطة المدينة، ومن ثم شرطة الريف بالرسائل اللا سلكية، وجاء نفر من أقاربه بعد أن غربلوا الصحراء سعيًا وراء آثاره.. وحين نضبت الأعراس الريفية التي أقامتها الضرورة ذهب.. كان أنيقًا بصوت ضائع، وجيب شبعان، وعود ممزق الأوتار.

مدرس شمالي

كنت وما زلت أعتقد بأن مهنة التدريس سواء كانت في بلادنا أو أي بلاد أخرى، تعتبر واحدة من المهن المهلكة، إنها تتطلب عروقًا قوية، تقاوم تجلط الدم في وقفته الطويلة، وتتطلب أعصابًا من حديد لا يقضمها توعك الأدمغة، والمشاغبات، وهروب التلاميذ إلى سوء النيات، ولعل أهم ما فيها ذلك الوعي المهني المهموم الذي يسد فجوات العجز بالمنطق لا بالعصا.. المنطق الذي يرهق المدرس كثيرًا لكنه ينمو مع التلاميذ أعوامًا.. والعصا تؤلم التلاميذ لحظات ويزول ألمها سريعًا. ولقد عرفت مدرسين من حملة المنطق، وحملة العصا، فما زالت للأوائل ذكرى معطرة أحملها.. أشمها بين حين وآخر.. ولعل «أسامة العاصمي» الذي كان يعمل في صحراء الشرق، غائصًا في أحشاء البداوة، مقاومًا للموت والجوع والضياع، ومحتملًا شراسة الجهل في عقول تلاميذه، والذي حييته في هذه السيرة من قبل، يعتبر واحدًا من أفذاذ المدرسين لن تنساه بلدة «أماتيب» وقرى «دولبياي».. وسيظل ذلك الطعم النقي لشايه المصنوع في نار الحجارة مسكنًا خاصًا في تذوقي.. واليوم أمضي بنفس السيرة إلى واحد آخر.. واحد من الشمال.

حين جاء «سيد أحمد» إلى البلدة البعيدة منقولًا من إحدى قرى الشمال.. لعلها «نوري» أو «القرير» أو «العفاض» أو أي قرية من تلك القرى المغروسة على شريط النيل، جاءت ترافقه إرادة عظيمة، فهو

مـن الذيـن ارتـووا من ماء النيل، وسـبحوا فيه «دميرة» وضحلًا.. ومن الذين تسلقوا النخيل.. وأكلوا «الدفيق»، أي التمر في بداية نضوجه،.. وركبـوا الحميـر، وحملـوا الـذرة والقمح إلى الطحيـن، وتخرجوا في معهـد المعلميـن فـي العاصمة تخرجًا ناصعًا، ليعـودوا إلى المنبع غير آبهين بالسحر المدني والنشوة الصاخبة، وحبال الحضر الحريرية التي قيـدت إلـى حريرهـا الكثيريـن.. عمل هنـاك، وكان لعمله ظهـرًا قويًا، حمل الكثيرين من لجة الجهل إلى يابسـة العلم، فسـاروا على الدرب لا يلتفتون. وحين نقل إلى البلدة البعيدة بعد عدة سنوات مثمرة، نقلت معه دموعًا، ودعاءات، ووداعًا حاشـدًا.. وقصائد من الشـعر من نتاج غرسه، ونقلت معه تلك الإرادة العظيمة أيضًا.

كانت بالبلدة البعيدة مدرسة ابتدائية واحدة، كانت بناءً مسكينًا من الطين، أنشأته الدولة كضوء شاحب في وسط ظلمة بلا نهاية، وعينت لذلـك الضـوء وقودًا ضئيلًا.. هم بعـض المتعلمين من أبناء المنطقة.. عينتهم ليدرسـوا.. فدرسـوا حسب طاقتهم المحلية، لكن ضوءهم ظل شاحبًا أيضًا، لا يرسل إلى المدينة إلى القليلين ليواصلوا الدرب هناك.. انغرس «سـيد أحمد» في ذلك الضوء.. وبتقنيته العاصمية وخبرته في المشـاق ومقاومة أشـد أنواع الجهل شراسـة، تحول الضوء على يديه إلى برق، أنشأ حصة للألعاب، وندوة أدبية، ودروسًا إضافية في المواد الشـائكة بلا ثمن، كنت أجد التلاميذ مشـدودين إليه بجنون، يفارقونه نهارًا ليتلقوه مساءً، ويفارقونه مساءً، ليلتقوه نهارًا، وفي لحظات نادرة منتزعة من الجذب التلاميذي، كنا نلتقيه، ننبهه إلى الشيب الذي أكل سـواد رأسـه، والنحول الذي أكل كسـاء عظامه.. والرطانة التي كادت تقضي على لغته.. وبنتِ عمه التي لا بد تنتظر الغائب في إحدى قرى الشمال.. لم يكن يضحك أبدًا، كان حلقه حلق مدرس خالص.. حلقًا

ينفتح على جغرافيا وتاريخ، وحساب وعربي، ولا ينفتح على قهقهة.. وعندما تزوره الملاريا التي كانت دائمة الزيارات في تلك المنطقة، لم يكن يستجيب لخمولها المكتف، وحمّاها المريرة، وعرقها الغزير، كان يحملها معه إلى المدرسة، يدرس بها وهي مندهشة أشد الاندهاش.

وفي أحد الأيام أردنا أن نحتفل بـ«سيد أحمد»، لم تكن هناك مناسبة، فالرجل أمضى قرابة الأعوام العشرة كبرت سنواته، وكبر تلاميذه، وظلت وظيفته، وجنيهاته غضة كما هي، دعوناه فاستجاب، وحين جاء لم يكن وحده، كانت ترافقه مدرسة بأكملها.

«تِلبش» نفسي

من الوجوه التي ما زلت أذكرها في البلدة البعيدة، وأخفقت طلاءات الزمن وتراكم الوجوه في محوها، وجه الصبي «علي أوقيق». كان وجهًا رقيقًا أخّاذًا.. يحمل محلية البلدة ونقاء أجوائها بجدارة، وينظر إلى مستقبل الأيام بعينين واسعتين، ربما كانت أوسع كثيرًا من العيون التي ينظر بها الكثيرون.

كان الطموح في البلدة وسط الصبيان والبنات في تلك الأيام مطأطأ الرأس بشدة، يرفعه لينظر إلى أدوات الزراعة وتقاليد الرعي، وتجارة المحاصيل الفقيرة، وزواج قبلي يزحف بالفتاة من قسوة بيت والدها إلى قسوة بيت عمها.. وكان التعليم رغم ضعفه وسوء تغذيته وتمثله في مدرسة ابتدائية وأخرى متوسطة، يلهث وراء القبائل، يترجى نظارها وعمدها وأولياء أمورها أن يمدوه بالتلاميذ.. فكانوا يقبلون أحيانًا ويمتنعون أحيانًا أخرى، يقاومون كثيرًا، ويستسلمون قليلًا.

كان «علي أوقيق» تلميذًا متوسطًا.. نهض على ساقين قويتين من موهبته وإصراره ولمع في دروسه كلها حتى كان أستاذًا يجلس في مقاعد التلاميذ.. كنت أصادفه من حين لآخر.. أصادفه زائرًا في المستشفى بسبب وبلا سبب، واكتشفت أنه كان يقضي بعض أوقات فراغه في المرور على المرضى وطمأنتهم وتذكيرهم بأنه سيصبح طبيبًا عما قريب ليداويهم واحدًا واحدًا. كان يسأل أسئلة غاية في الإرباك، يصر على معرفة تركيبات المحاليل وأضرار الأدوية، وإمكانية اللجوء

إلـى طـب الأعشـاب كمـلاذ للتحرر مـن كل تلك «الكيميـاء» المخبأة فـي العقاقيـر. كنـت أجيبـه بتوتـر، أحيله إلى تعليمه المتوسـط، وسـنه الغـض، وأرسـله أحيانًـا إلى «عبد الله سـنار» ذلـك الصيدلي المحلي الذي كان يملك تكشـيرة في الوجه، تطرد كل أسـئلة متطفلة.. وكنت أحيانًـا أضحـك كثيـرًا عندما أتذكر أنني كنت مثله تمامًا، وكم من مرة أحرجت طبيبنا القديم «عواض» عندما كنت أذهب إليه مريضًا أو برفقة أهلي، لدرجة أن عواض الهادئ والمؤدب، والحاصل على مؤهله من جامعة «الإسكندرية» أصر على عدم حضوري إلى عيادته مرة أخرى.

كان ليل البلدة قد التم بإتقان عندما سقط الصبي «علي أوقيق».. كان قد التهم دروسـه على ضوء فانوس شـاحب، تناول عشـاءً عاديًا.. مـن عجينـة الدخـن المحلاة بالسـكر، ثم سـقط.. وبصرخـة من هنا.. وهمسـة مـن هنـاك واجتهـادات عـادة ما تكثر في مثل هـذه المواقف، شخص المحليون حالته بأنها «تلبش نفسي».. حملوه إلى أحد البيوت المعروفة بتجارة الدجل.. بخروه بـ«القرض» وبخور «التيمان».. ولعلع فـي ذلـك الليـل «زار» إقليمـي عنيـف، كان قوامه الغناء غيـر المتزن، والنسـوة الراقصـات، والرجال الذين جـاء بهم فضولهم، وهم يبحثون عـن متعـة يكسـرون بهـا روتين الليل والظـلام. كان الصبي مدلوقًا في وسط اللعلعة، عيناه ميتتان، وجلده مكسو بالعراق، كان الغناء يضرب أذنيه فلا يوقظهما.. والبخور يصافح خياشـيمه ويعود بلا شـم.. وفي آخـر الليـل وعندما تعـب الدواء الدجال، وبدأ تنفس المريض يخاصم رئتيه، كان لا بد من صوت عاقل يقترح الطبيب، فجيء به إليّ.

لـم أكـن بحاجة إلى عناء كثير لأكتشـف مـا بالصبي، إنها غيبوبة السكري الرهيبة.. كان لسانه جافًا كحائط، عيناه غائرتان حتى التلاشي، ومـن فمـه تنـز تلـك الرائحة الخطـرة.. رائحة التخثـر والموت. حقناه

بالمحاليل وبـ«أنسولين» رطب كنا نحتفظ به لحالة كهذه، ثم أرسلناه إلى المدينة.. لكنه لم يعد أبدًا..

ذهب الصبي «علي أوقيق».. ذهب طبيب البلدة المستقبلي، وذهبت أسئلته عن أضرار الأدوية وطب الأعشاب.

ملازم راطن

من الأماكن ذات الهيبة في البلدة البعيدة، والتي يدخل الناس إليها بحذر واعٍ أو غير واعٍ، ويدرجون القائمين عليها في «ونسة» المجالس، إضافةً إلى المستشفى، والمسجد الكبير، والمجلس البلدي، والمدرسة، وحامية الحدود، ودكان الوجيه حسن، ومجلس العمدة «أوهاج دريري»، كان مركز الشرطة.

إنه مركز الخصومة والصلح.

مركز الغرامة والجلد، ونهب سيوف العراك، وخناجر الفتك، ومواهب اللصوص، وسقوط الساقطات.

مركز الدحرجة إلى الموت أو السجن المؤبد.

كان بناءً من طراز إنجليزي، له وجه البيوت المسكونة، ولون البن المحروق، وكفاءة ممرضي المصحات العقلية. وكعادة البلاد عندما تولد وفي أرضها مستشفى، وسوق، وبيوت، وضروريات أخرى، ولدت البلدة البعيدة، وفي أرضها كل ذلك، ومركز للشرطة.

كان وجود المركز في بدايته معضلة، فقد كانت القبائل ممسحة بالفوضى، تتجاذب أطراف الحديث بالخناجر، وتقتتل على رقعة زراعية مسكينة، ربما لو زرعت لما أفادت أحدًا. وقد تعاقب على المركز في أيام طويلة عدد من العساكر الغرباء، شايقية، ودناقلة، وجعليين، وعاصميين، كانوا قساة إلى حد الرجم، لكنهم يهزون رءوسهم مسكنة أمام لغة القبائل التي كانت تشتمهم، وتتفه شواربهم،

وقسوتهم، وهم صامتون.. وفي إحدى السنوات.. ربما السنة التي سبقت وجودي في البلدة، تجلت إحدى قبائل المنطقة، تفوقت على منطق الرطانة، وأهدت العدالة الطرشاء في المنطقة واحدًا من أبنائها.. ولدًا فذًّا، تعلم في كلية الشرطة، وجاء بنجمة ساطعة ليحل مكان صمت الغرباء ومسكنتهم.

إنه إدريس.. ضابط الشرطة الراطن، وصديق الجميع.

كان متوسط الطول، ملامحه محلية ناطقة، وتشتته في بلاد الحضر طلبًا للتعليم، أعطاه زوجة مدينية، ورهافة في الأسلوب، وخفوتًا في الصوت دون أن يفقد صلادة منفذي القانون البعيدين.. وكأنما أرادت البيئة أن تمتحنه تلك السنة، فقد اعتدت إحدى القبائل على خور صغير يخص قبيلة أخرى، التحمت القبيلتان، وتحدثت السيوف والخناجر، فقد «هندوب» أذنه، و«أركة» ساقه، وفقدت «تهنوس» زوجها.. وظللنا نحن متلقي شر البشر في كل مكان، نعمل حتى يبست حلوقنا.

ثم كان لا بد من صلح بين القبيلتين.. بعد أن دُفن من دُفن، وتعافى من تعافى.. وتسرب إلى الرحيل من تسرب.

كان إدريس الراطن هو نجم ذلك الصلح.. أكثر من ذلك، فقد أسهم في عقد زيجات متعددة بين القبيلتين، فأصبح الدم واحدًا واللحم واحدًا.. والخور المسكين أيضًا واحدًا.

كان يدور بعربته «النيسان» في المنطقة كلها، مئات الكيلومترات، والأيام، يشرب لبن المطايا، وقهوة القبليين، وإساءات بعض الراطنين الذين يرون في «تعسكره» خروجًا على العرف.. وتجاوزًا لحالة التمرد القبلية.. التي كانت في الحقيقة بلا معنى.

سألته بعد أن نال ترقية استثنائية أضافت إلى سطوع نجمته سطوعًا آخر:

- إلى متى ستظل مدفونًا هنا؟

قال: حتى تنام المنطقة بلا سيوف أو خناجر.

القصاص

كان «أوكير رطل» هو قصاص الأثر الوحيد الذي يحظى بشعبية طاحنة في البلدة البعيدة على الرغم من وجود أكثر من ثلاثين قصاصًا آخرين، يملكون كفاءة العمل، ولا يملكون سحر أوكيرا كان جزءًا مهمًّا في عمل الشـرطة الروتيني، واسـمًا لامعًا تختتم بإفادته التقارير، وكان يرافق حملات التفتيش بشـباب مهني غريب رغم أعوامه التي تخطت الثمانيـن. يشـرب بـن القبائـل المـر، ويدخن سـجائر الهبات، ويسـأل الأرض أسئلة حقيقيـة، ويبتسـم. كانـت قبيلتـه فخورة بـه.. تقدمه في مجالس الصلح، وشـهادات الأعراس، وزيارات الحكوميين المتفقدة، تحاجج بلسانه في حصص التموين والإغاثة، وتجدد روتينه البيتي كل عـدة أعـوام بزوجة جديدة مهداة بلا تكاليف. وكاد بعض المتشـنجين أن يرشحوه عمدة في إحدى السنوات لولا أن سنه المتقدم خانهم.

وقـد عرفـت أوكيـر عند قدومي إلى البلـدة معرفة الغريب لنجوم المجتمع المحلي، كان موجودًا في كل دعوة أوجَدُ بها.. أرى ملابسه نظيفة في غير لمعان، وعينيه بعيدتين عن رونق الوجه لكنهما حادتان، وأرى عصـاه المنحنيـة كظهـر هـرم، تتأرجح وتقوم وتقع، كأنها تسـرد وقائـع غاضبـة. لـم يكن أوكير بحاجة إلى خدمتي المهنية كما بدا لي، فهو لم يدخل المستشفى أبدًا، كان الثمانينيون أمثاله هم جل مرضانا.. كما يقضي بذلك تلف العمر، يراجعون في مرض الضغط والسكري، وتصلب الأوعية، والربو، وضمور المفاصل، وحتى في تساقط الشعر

واحمرار الجفون، لكن أوكير لم يراجع أبدًا..

وجاء يوم احتجت فيه إلى نجوميته بشدة.

كنا نقيم في بيت لصيق بالمستشفى، واحد من بيوت الدولة التي يكرم بها الغرباء في الريف، لم يكن فخمًا ولا آمنًا، لكن اتساع غرفه، وتمدد صالاته، والنجيل الأخضر الذي يزين حوشه الترابي، كان يخفض قليلًا من تراكم العزلة، لم تكن للغرف مزاليج تغلقها، وكان الباب الخارجي ثملًا يترنح مع الريح. كنا نعتمد على احترام البلدة لنا، نظنه كافيًا لصد غوايات الإجرام التي تتسكع في البلدة.. إلى أن جاء يوم واختفى جهاز للتسجيل والراديو كان محدثًا يوميًّا بأخبار العالم، ومغنيًا شجيًّا في ليالي العزلة.

جاءت الشرطة، بتقنيتها الفقيرة، وأسئلتها الشاحبة، وبحثها الذي لا يسفر عن شيء أبدًا، نقبت في البيت، وأيقظت نعرات حي عشوائي فقير كان يلاصقنا في هدوء، لم يؤذنا ولم نؤذه.. فقط كان يزعجنا أحيانًا بمرضى ليليين.. ذلك الإزعاج الذي كان يحمسنا للعمل. وعندما يئست التقنية الفقيرة، جيء بالجزء المهم.. أوكير رطل.

كان مستيقظًا كبومة.. رغم ساعات الليل التي زحفت نحو الثانية عشرة.. تحسس أحذيتنا، وحذاء عامل كان يخدم في البيت، لف حول الغرف استنشق هواءها، ودار بالبيت مستخدمًا بطارية قديمة.. ثم خرج إلى الطريق.

كان تتبعه مبهجًا للغاية، وكانت المرة الأولى التي أرى فيها أثرًا يقص.. كان أوكير ينحني على الأرض يكلمها وينبش في لحمها بعصاه، ثم يستقيم ويمشي.. وبعد ساعة من التأرجح والانحناء والسير المراقب من عيوننا توقف. أطفأ ضوء بطاريته، ووضع عصاه تحت إبطه ثم نطق يخاطب عساكر الشرطة:

- اذهبوا إلى بيت حسنة.. تجدوا المسجل هناك! لقد أخذه ابنها.

ثم التفت مادًّا يده إليَّ..

- أعطني تعبي يا دكتور.

أعطيته تعبه دون أن أفهم شيئًا، لكن عساكر الشرطة فهموا أشد الفهم! فقد عاد مسجلي إلى بيته في نفس الليلة، وحل ابن حسنة الذي لم نسمع به من قبل ضيفًا على محبس الخطيئة.

وظائف ومساعد

من الوظائف التي حتمتها البيئة في بلادنا، ومورست بنشاط غير عـادي، وظيفـة «الصائـح» الذي كان يركـب حمارًا، يطوف على القرى والأريـاف، يعلـن عـن وفـاة أحـد.. لقد لمسـت معاناة تلـك الوظيفة، وفائدتها في الشمال.. إنها إذاعة من لحم ودم، لا تتطلب «ميكروفونًا»، ولا موجـة أثيريـة، ولا فنييـن ولا اختبارات لتقييـم الصوت والمظهر. والأداء. وكنا ونحن صغار نخاف صوت الصائح، يرتعد نومنا بشـدة، ونندس في جزع الكبار حتى يختفي. أيضًا وظيفة «الماشطة» التي تشبه وظائـف «الكوافيـر»، لكنهـا كوافير بلدي ومتجول.. وذو لسـان ناقل، وعينين تنهشـان البيوت، ومزاج هسـتيري ينتقي الهدايا والأطايب من تلك البيوت. كانت الماشطة تلم شعر النساء في ضفائر صغيرة وبائسة، كانت هي زينة الرأس في تلك الأيام. ومن تلك الوظائف أيضًا كانت وظيفة المساعد الطبي.

لم يكن المساعد الطبي حكيمًا بلغة الجامعات، وروب التخرج، والشهادة المطوية، المبروزة في صالون العائلة. إنه ببساطة حكيمٌ بلغة التجربة، والخبرة، والعراك الطويل مع المرض.. كانوا يبدأون فراشين بتعليـم فـج، ثـم ممرضيـن بجـرأة حقـن النـاس، وتطهيـر جروحهـم، والتفلسـف أحيانًـا بعبـارات أجنبيـة يلتقطونها من هنـا وهناك. وعندما يصلـون إلـى مرحلـة المسـاعد، يصل شـعرهم إلى الأبيـض، وعيالهم إلـى الجامعـة، وبناتهـم إلـى الزواج، وفلسـفتهم الأحيانية إلى فلسـفة

دائمة. وأقول إن تلك الوظيفة رغم قصورها وكثرة أخطائها، وهروبها من طريق الواجهة، قد أسهمت كثيرًا في تولي أعباء الريف البعيد، وإسكات أمراضه إلى حين، وكان أهم ما فيها أنها تمارس بجهود أبناء المنطقة نفسهم.. وقد كان أحمد المصطفى أحد أبناء البلدة البعيدة الذين ساعدوني طبيًا.

كان خمسينيًّا تسلق سلم المساعدة الطبية من القاع، عمل في قرى محيطة بالبلدة، كمسعف أولي، وممرض، ومدرس غير رسمي في مدرسة بها تلميذان. وعندما وصل قمة هرمه الوظيفي جاء إلى البلدة. كان كثير الحركة، ينشط في غير ناتج، يعالج المرضى في عيادتنا الخارجية علاجًا «تفويتيًّا»، يرسل نصفهم إلى الطبيب، ونصفهم إلى الشارع بجميع أعراضهم. ومضاعفاتهم. وكنت حين أمر على العيادة مرورًا تفقديًا، مدفوعًا بتلك الشكاوى التي لا تنقطع، أجده منهمكًا في معالجة «سفَّة التنباك»، أو سيجارة مكسورة، بينما لفح الحمى، وعواء الاستفراغ، وشواكيش الصداع، كلها متوفرة على بابه.. كنت أنذره.. فيلتزم أيامًا ثم يتبعثر.

في أحد الأيام اشتبكنا.. أنا والمصطفى، اشتبكنا اشتباك مسئول بمستهتر.. كان أحد المرضى يشكو من سقوط جسم غريب في عينيه، فظل المساعد يرسله إلى بيته ثلاثة أيام متواصلة، هي مدة مراجعته للمستشفى، حتى أصبح الجسم الغريب جزءًا من نسيج العين، وليس غريبًا متطفلًا يمكن طرده بسهولة.. استدعيت المساعد إلى مكتبي.. سألته: لماذا فعلت ذلك؟

قال وشفته السفلى مورمة بفعل سفَّة غير محترمة من التنباك:

- مزاجي قال لي افعل ذلك.

ولما كانت تلك المهنة لا تخضع أصلًا لتعليمات المزاج،

وتتغذى برهافة القلب أولًا، فقد أرسلته إلى إحدى القرى.. مسعفًا أوليًّا لا يملك من غبار المهنة سوى لزق الجروح، وحبوب الكلوركين المهدئة للملاريا. عشرة أيام أمضاها المساعد في القرية البعيدة، ثم عاد، كان محمولًا على وجاهة عشرين فردًا من عمدة، وناظر، وتاجر، وموظف، كلهم من وجهاء البلدة.. شكلوا ضغطًا وجيهًا في مكتبي، وتعهدوا برفع وجاهتهم عنه إذا أخطأ مرة أخرى.

في ما تلا ذلك من أيام، كنت أمر على العيادة الخارجية، أجد أنّ المرضى يعالجون بهمة، الحمى مؤدبة، والاستفراغ صامت، والمساعد منهمك في فحص صدر، أو بطن، أو عين، كان بلا سيجارة، ولا سفة مستهترة.

مقطع عن الرشايدة

كانت قبيلة «الرشايدة» إحدى قبائل المنطقة البعيدة.

لم يكونوا من أساس في البلدة، ولا تعجبهم بيوتها الطين، واستقرارها المتأزم، واعتمادها على الزراعة الموسمية، وتطلع أهلها إلى سحاب قد يمطر، وقد يذهب. كانت لهم فلسفة الحياة الخشنة.. فلسفة البداوة التي تستقر قليلًا وتنزاح أكثر. وكانوا على خصومة دائمة بأي سلطة.. بسبب إغراقهم الساحل ببضائع لم تمر على رصيف حكومي، ولم يعبث بها نظر جمركي، ولا تدر على البلاد ما تدره البضائع ذات الكساء الرسمي.. يعتبرهم القانون خارجين عنه، ويعتبرون القانون عينًا غير مؤدبة تتلصص على تجارتهم. كانوا ينتشرون حول البلدة، خيامهم من شعر خشن، وعرباتهم التي تؤازر بداوتهم قوية، وجديدة، وذات دفع رباعي.

كانوا يدخلون إلى البلدة حين يحتاجون.. وكان ذلك الاحتياج قليلًا.. لكنه يشكل ابتسامة عريضة تملأ وجه البلدة كلها. تمتلئ مطاعم الفقر والذباب بأفواههم التي تأكل بلا حساب.. ومقاهي الشاي والبن المر، ينضب تموينها.. وتجارة السكر والزيت أيضًا تبتسم، حتى عيادتنا الفقيرة في ركن البلدة، والتي يتوارثها طبيب عن آخر، كانت تمتلئ بهياكلهم.. مرضى شديدو الصرامة والسخاء يعشقون الحقن، ولا يعترفون بأجرة العلاج الرسمية، كانوا يعتبرونها لا شيء. وحين هاجت السلطة في إحدى السنوات، وطاردت عرباتهم ذات الدفع

الرباعي، حتى اعتقلتها جميعًا، انكسر ذلك الفرح الذي يزف بالبلدة، وكشرت الابتسامة، تحول الرشايدة إلى رحل متأزمين، يرحلون بلواري معطوبة، وحمير عرجاء، وعربات بلا دفع تنغرس في الرمال حتى الحلق.. كانوا يدخلون كدخول أي ريفي، يعدون القروش حتى تمل، وظهر فيهم طبع «تساومي» لم يعرفه أحد من قبل.

كنا على وشك أن نغلق العيادة حين جاء «حمدان الرشايدي».. كان من زبائن المرض الذين يأتون أحيانًا.. يعرفه الممرض منذ عدة سنوات، وأعرفه من مرتين فقط عالجته فيهما.. ويبدو أن دخوله لم يثر ذلك الشعور المبهج القديم، لأنني سمعت الممرض يبلغه بانتهاء وقت العيادة، وعليه الحضور في اليوم الثاني.. نحى الممرض بقسوة، وانفلت إلى غرفتي.. كان حمدانًا آخر.. حمدانًا بلا هيبة، ولا حزام حول الوسط.. قال:

- اعذرني لهذا الدخول المزعج.. لكنني في ورطة.. لست مريضًا.. فقط أريد سلفة من عندك.. أي مبلغ من المال.

لم أناقش نفسي أبدًا.. أخذته إلى بيتي.. وأعطيته عدة آلاف من الجنيهات كانت حصاد شهر كامل من العمل الريفي بين ركاكة المرض، وركاكة اللغة المحلية التي كنا نتحدثها حتى لا نموت جوعًا.

أخذ الرشايدي حصادي، واختفى، كان يبدو ممتنًا، ومنكسرًا، حتى خلته سيسقط، عدة أشهر مضت، رطن الغبار المزعج رطانته، وحبا الخريف على بور الأراضي وأنعشها.. كنا نعيش، نربح ونخسر، نربح الخبرة والمال القليل، ونخسر العمر الذي يكبر بعيدًا وجافًا.. كنت أرى بعض الرشايدة يدخلون، ويخرجون، ويتعالجون، ولم يكن بينهم حمدان.. حتى اسمه الذي يتكرر في رجال الرشايدة كثيرًا، لم يكن موجودًا في الذين رأيتهم.

في أحد الأيام، كانت العيادة خاوية من أي تنفس حي، كنت وممرضي «سمبابة» نقتل الملل بثرثرة بلا طعم، ونحتسي قهوة الزنجبيل المرة، فجأة دخل أحد الرشايدة.. كان طويلًا، من ذلك الطول النادر الذي يحتاج إلى وقت أكبر لتبين ملامح صاحبه، اقترب من جلستنا، وكان غريبًا لم نره من قبل.

سألني: هل أنت الطبيب الوحيد في هذه البلد؟

قلت: نعم.. قال: يهديك حمدان السلام.. ويرسل إليك هذه الرسالة..

ثم خرج.

فضضت الرسالة الحمدانية التي كانت خفيفة للغاية، وأنا أتوقع اعتذارًا مقبولًا من رجل في ورطة، وكانت دهشتني عظيمة، حين عثرت على عدة أوراق من العملة الصعبة كانت إحالتها إلى عملة محلية تغطي حصادًا أكثر من حصادي القديم بمئة مرة.

«تايب رايترز»

كان المستشفى هو أول ما يلفت نظر الغرباء في البلدة البعيدة، وكان للفت النظر هذا أسبابه العديدة، منها تلك الفخامة النسبية التي بنيت به.. بالطبع ليست فخامة مستشفيات المدن القائمة على أشكال وألوان وفلسفة هندسية، لم تسمع بها البلدة، لكن طلاءها الأبيض، ونجيلها الهزيل، وخزان الماء الذي يرتفع في غطرسة، والإضاءة المتقطعة التي يجود بها مولد محدود الإرادة يستر عورة الفقر قليلًا، كانت تعد فخامة. أيضًا وجود الطبيب في حد ذاته كان يعد فخامة، ففي ذلك الوجود يمكن أن تعثر على قميص وبنطال أنيقين، ونظارة طبية غالية الثمن، وحذاء يختلف عن أحذية البلدة التي تستعمر أرجلها «المراكيب»، وأحذية «التموت تخليه» المصنوعة من إطارات السيارات، وفي كثير من الأحيان عري الأرجل الصريح، ذلك بالإضافة إلى وجود سكن يتبع المستشفى يمكن أن يشكل فندقًا بلا نجوم لكنه يسند حضور أولئك الغرباء، ويستضيفهم. لذلك كنا دائمًا ما نكون أول من يصافح الغرباء عند حضورهم.. وآخر من يصافحهم عند انغراسهم في سكة السفر.

حين جاء «التقلاوي» إلى البلدة سار على درب لفت النظر ذلك، وفوجئنا به بكل مستلزمات سفره من تعب، وإرهاق، وحقائب، يصب في المستشفى، ثم في السكن بعد ذلك، كان من أبناء الغرب، لكن مهنته الغريبة جعلت وجوده في السفر حتميًا، فقد كان فنيًا جوالًا

يعمل في صيانة الآلات الكاتبة «تايب رايترز».. هكذا كان ينطقها عاضًا على لحمها الإنجليزي في إصرار حتى ينزف.. كان يلاحقها في المدن البعيدة، ولا بد أن تلك المهنة كانت مربحة.

كنت من المغرمين بالأسماء.. خصوصًا تلك التي تملك رائحة عجيبة، ولا تتكرر كثيرًا.. فقد أنفقت ظهيرة مشتتة وأنا ألاحق اسم الغريب، أحيله إلى مدن، وقبائل، وعائلات، ولا أجد له تربة صالحة أغرسه فيها، اسم «التقلاوي» يشبه «الدنقلاوي» و«الحلفاوي»، و«الحلاوي»، لكنه بلا غطاء مثل تلك الأسماء، فليست ثمة قبيلة اسمها «تقل»، ولا مدينة كذلك، ولو افترضنا أنه اسم عادي مثل أي اسم.. فماذا يعني؟

أفقت على صوت الغريب يسألني.. وعندما التفت إليه رأيته يعبث بإحدى حقائبه التي لا بد أنها تحوي عدة العمل الصياني للآلات الكاتبة:

- كم «تايب رايتر» عندكم في المستشفى؟

قلت وأنا أتذكر الكاتب الوحيد بالمستشفى.. العم «شيبة شيبان».. وهو منكفئ على أوراقه ومراسلاته يركلها بخطه «الهيروغليفي»، ويرسلها إلى رئاستنا الإقليمية، ليقرأها كاتبهم القديم «بشرى» دون أي تذمر:

- ولا واحدة.

كان الغريب كأنه لدغ، لأن يده فرت من حقيبة العدة، كما تفر من شاي حار، أخرج ورقة من جيبه، وشطب على اسم مدون في أعلاها، استطعت أن ألمحه، كان اسم المستشفى الذي دون بجانب عدد من المرافق يبدو أنه شد الغريب وتجواله إلى تلك البلدة.. بناءً على نصيحة خاطئة.

أخذته إلى سكن الأطباء، كان الغداء فقيرًا لكنه مشبع، وكان بعض العاملين في تلك المرافق التي دونها الغريب في ورقته، قد حضروا للغداء أيضًا، عثر على ضابط في الشرطة، وضابط في الجيش، ومفتش زراعي، ومفتش في الحكومات المحلية.. أراد أن يلاحق آلاتهم الكاتبة، فأخبرته أن ينتظر حتى ينتهي الغداء. كنت أخشى على شهيته من انسداد أو جلطة.

عندما انتهى الغداء جاءت الخيبة الكبيرة تعدو.

لم تكن توجد آلة كاتبة واحدة في البلدة كلها.. كانت الأيدي المحلية هي الـ«تايب رايترز».. تركل الورق، وتغلفه، وترسله، ولم يرد في ذهن أي مصلحة محلية أن تغير من ذلك السلوك.

في الصباح التالي كان «التقلاوي» يلم عدته، وإرهاقه وحبوب تهيج القولون التي زودتها به ويرحل.. صافحناه وقلنا.. إلى لقاء.. قال كأنه يشتمنا:

- لا أظن ذلك.

حاكم البلدة

كان «إدريس» صبيًّا في الثامنة عشرة من عمره، من أهالي البلدة الذين لم يولدوا فيها، حيث هاجر أهله إلى الميناء، جريًا وراء رائحة البحر والرزق التي ابتدأت تعطر بولادة ذلك الميناء، كانوا يتذكرون البلدة منبعًا للجذور، هجروه لينبتوا بجذور أخرى في أماكن أخرى، وكان فرحًا للغاية بوظيفته التي أرسلته مجندًا أمنيًّا في البلدة، بوجه عدائي، وملابس متنوعة، ودراجة نارية ذات محرك شرس، يقتلع النوم والاسترخاء ويشوش الأقاويل في بلدة لا تملك متعة غير ذلك الترفيه، حيث لا سينما، ولا مسرح، ولا مغنون، ولا حتى كهرباء لتنير مجالس القهوة التي تنفض حالما تغرب الشمس.

حين جاء إدريس، جاءت معه أدبيات جديدة لم يكن يعرفها أحد، كانت الشرطة القابضة على الأمن الفقير في المنطقة، شرطة صديقة، موجودة في مجالس العمد، والنظار، والسوق، والمستشفى، والبيوت، تكبل الخصومة قبل أن تبدأ، وترطن في لحظات المشكلات، معيدة بتلك الرطانة سكاكين القتل إلى أغمادها، وحين تعثر على سكارى نادرين يتنزهون، أو يترنحون في ليل البلدة الورع، تأخذهم إلى بيوتهم، وربما تنصحهم، وفي أحيان قليلة تستضيفهم لعدة ساعات حتى تتلاشى نشوتهم المزيفة..

لم يكن بالبلدة.ساسة خطرون يستحقون مجندًا كإدريس، كانت السياسة بعيدة بنفس بعد البلدة عن أي مركز حضاري، يمضغها

المحليـون، ويبصقونهـا كحنظل، وحتى في أيام الأحزاب حين جاءت صناديق الاقتراع بغزلها الظاهري، وتراقصت أمام أصواتهم البعيدة، لم يسـتجب أحد لغزلها، كانوا يعرفون أنه غزل وقتي ينتهي بإغلاق تلك الصناديق، وإعادتها إلى العاصمة.

كانت أدبيات إدريس شـديدة التعقيد في بلدة سـهلة، اختار عدة مواقـع تضـم غربـاء جـاءت بهـم الوظيفة، فجاءوا، سـكنوا في البيوت الطينيـة المظلمـة، وعملـوا فـي بيئـة الغبـار بعيدًا عن أي تـرف، حتى مظاريـف الرسـائل التـي يمكـن أن تربـط وحدتهم بالمنابـع لم يكونوا يعثرون عليها إلا بشق الأنفس. من تلك المواقع كان المجلس البلدي، وأعمال المنظمات، ومستشفاي الفقير الذي حاولت أن أحول فقره إلى غنى، وعنابره التي أحنى الاتساخ ظهرها الطبي إلى عنابر صحيحة تلم المرضى بصحة. كان أول مواجه لممارسات إدريس، كاتب الحسابات في المستشفى، أوقفه في أحد المساءات، فتش جيوبه وذهنه، ووظيفته التي أمضى بها ثلاثين عامًا، وحين أطلق إيقافه، كان الصباح قد بزغ، وكانـت البلـدة كلهـا تنقـب بحثًا عن اختفائه الـذي لم يحدث أبدًا من قبل. كنت أمشـي في البلدة فألمح إدريس ويلمحني، أراه ولدًا طائشًـا فرحًـا بدراجـة، وسـلطة وعدة رعـدات كان يراها في اتـزان القرويين، وربما يراني غريبًا متكبرًا، ويعد عدة ضخمة لاصطيادي.

فـي إحـدى الليالـي جاءنـي ممرض الليل مرتبـكًا، أيقظني بنفس الطريقـة التـي كان يوقظنـي بها عندما يحدث طارئ يسـتوجب إحضار الطبيب، كحالة ولادة، أو جرح نافذ، أو نزيف، أو التهاب زائدة دودية، مسحت نومي مسرعًا، واستفسرته:

- هل توجد حالة خطيرة؟

- قال: لا.

- ماذا إذن؟

- إدريس يريدك أن تبقى بموقع عملك طوال ساعات الليل والنهار، لقد كتب لك تعليمات بذلك، وتركها عندي.

قال ممرض الليل، ودفق من جلده عرق غزير، كان وجهه أشد ظلمة من الليل نفسه، وملابسه البيضاء تبدو في البلل، وتبعثر الحواس، كأنها قفزت من «طشت» للغسيل على جلده مباشرة.. صرفته بمودة، وظللت أضحك حتى الفجر، كان الصبي المجند قد استرسل في البلدة حتى نصبته خيالات الصبا مديرًا للخدمات الصحية، ومحافظًا.. وربما ترسله غدًا إلى كرسي الوزارة.

في الصباح ظللت أتتبع الأثر المراوغ للدراجة النارية الوحيدة في البلدة حتى وجدتها، كانت تتعجرف أمام جزارة اللحم، وكان المجند منحشرًا بين البيع والشراء، يلزم جزارًا على بيع لحمه بخسارة فادحة، وكان الجزار ملتزمًا، ومرتعدًا، ويذبح الخروف تلو الآخر، قلت له:

- هل عينوك مديرًا للخدمات الصحية في الشرق.. أم محافظًا للبلدة.. أم ماذا؟

انتزع انشغاله باللحم، وطعن وجهي بنظرة بدت لي نظرة خاصة جدًّا، ربما تدرب عليها زمنًا.. واصلت:

- لو دخلت المستشفى مرة أخرى دون أن تكون مريضًا.. فسترى.

وانصرفت وسط رعدة القرويين التي كانت مستغربة.

منذ تلك اللحظة لم يعد إدريس إلى المستشفى، ابتعد بملاحقاته، ودراجته، وفرحه الصبي، وحين عاد في أحد الأيام.. كان ميتًا احترق في بيته دون أن يجرؤ أحد على الاقتراب من ناره الأمنية.

حلّوف وأمه

كان «حلوف هيثم» مواطنًا من جبال النوبة.. ليسوا نوبة الشمال ذوي السمار المعتدل، والشعر المسبسب، و«حلفا دغيم» التي كانت في عرفهم باريس أخرى ذات نور محلي ساطع، ولكن نوبة الغرب السمر جدًّا، والخشنين جدًّا، وأبناء الأب «فيليب»، و«كوة»، وآخرين يعدون في عرفهم عمالقة في كل شيء. كان حلوف ممرضًا مثاليًّا.. كرمته البلدة في عدة مناسبات، ومنحناه شهادة تقدير، وكلمات مؤثرة، وساعة عادية الثمن، كان الوحيد من ممرضي المستشفى الذي لم يحم بـ«بنسلينه و«كلوروكوينه»، ومحاليل جلكوزه على بيوت البلدة، سعيًا وراء كسب مخيف، كان الآخرون يلقون إليه بالشباك، أيضًا الوحيد الذي لم يلبس زيه «التمريضي» أكثر من مرة في الشهر، فقد كان الآخرون يرتدونه أشهرًا حتى يتحول إلى زي «عربجي» يصلح لحمل الأجولة، والتسكع في سوق المواشي، أكثر مما يصلح لرحمة مريض، كذلك كان ينأى بعواطفه بشراسة عن ممرضات المستشفى اللائي كانت عواطف الآخرين تطاردهن دون كلل. ولولا اسمه الذي كان ينز غرابة، ويجمع كائنين مختلفين في سياق أحمق، لكان أعظم ممرض في تاريخ البلدة.

منذ الوهلة الأولى لفت نظري حلوف واسمه، وبناءً على خبرة سابقة في أبناء تلك الجبال، التقطتها من كثيرين، عرفتهم زملاء، وجيرانًا، وباعة، وعمالًا، استنتجت أنه هبط البلدة مهاجرًا بلا اسم

موثق في شهادة ميلاد، فتسمى بذلك الاسم من إيحاء «الحلاليف» التي كانت تنتشر في صحراء تلك المنطقة، ويصطادها أبناء الجنوب، كوجبات مقززة. لكنه أخطأ بكل تأكيد، ولعله أكرم والده بشدة حين سماه باسم سلس لا يزال يحدث أثرًا ناعمًا في كل جيل.

كان ملفه الوظيفي بلا شهادة ميلادية، ولا دراسية، ولا بطاقة للهوية، لكن أوراق خبرته كانت جيشًا غضنفرًا، يشكو من ثقل إيوائه ملف الخدمة الصغير. وقد قال لي «العركي» كاتب المستشفى القديم، والذي ظل يعمل عشرين عامًا موظفًا لشئون الأفراد، وموظفًا للحسابات و«تايب رايتر» في كثير من الأحيان، وربما فراشًا وممرضًا مساعدًا، إنه وجد «حلوف» ممرضًا فذًّا لا يحمل شهادة تمريض أكاديمية،، فتركه هكذا.

ذلك المساء كان عند حلوف ضيف عزيز.. إنها أمه «شنطة عكاز» التي قدمت من الغرب على ظهر عشرة أيام مسافرة.. يهزها الشوق، وتدفعها طاقة في العمر قليلة للغاية لكنها مؤثرة، كان الممرض ملتاعًا وقلقًا، وأظنه كان يبكي حين هز راحتي الليلية، وأيقظني من حلم حضري جميل.. قال: أمي تحتضر.. وسابقني الهرولة إلى ليل المستشفى الذي كان أسوأ ليل لأمثالنا.. كان قاتمًا، وكئيبًا، ويعج باستمرار بنواح غريب نسمعه يقينًا لا هلوسة.. كانت المسافرة بغبارها، وأشواقها ملقاة في عنبر «الحريمات» الذي كان خليطًا من كل أفرع الطب المختلفة، قديمًا، وبلاء طلاء، ويضيئه فانوس شاحب.. دققت في المريضة بمساعدة أعين الخفاش التي اكتسبتها في تلك البلدة، واكتشفت أنها العيون الرسمية لأهل البلدة.. يمارسون بها إبصار الليل، فلا يفوتهم شيء أبدًا، بتلك العيون كان السكارى يعودون إلى بيوتهم، والمشاغبون يمارسون شغبهم، ومراقبو

الهمس يدعمون مراقبتهم. وبتلك العيون أيضًا كانت الشرطة المحلية تبسط قوانين الليل، وتنفذها. كان اسمها المدون في أوراق الدخول.. «شنطة عكاز»، وعمرها الذي قدرته الخبرة الطويلة لمساعدي الطبي.. تسعة وستون عامًا، لكنها بدت لي لا تشبه الشنطة، ولا في قوة العكاز، وأن عمرها لا بد تجاوز الثمانين.. كانت مصابة بالتواء في الأمعاء، فسره ابنها بأنه ناتج من أكل العدس الذي لا تقدم المحطات الخلوية في سكة السفر غيره، وبتعمقي في الفحص وجدتها في ما عدا ذلك الالتواء الطارئ أمًّا قوية للغاية يمكن أن تعيش بأمومتها زمنًا آخر بلا مشكلات.

أدخلناها إلى غرفة العمليات بتجهيز فقير، ونشاط مكثف من كل طاقم المستشفى الذين أيقظهم أناس تخصصوا في هتك عتمة الليل، والطواف بأعين الخفاش، أزلنا التواءها، ورتقناها، ودخلت في عناية فائقة كان يحركها حلوف بتمريضه المثالي، ودوافع أخرى تخص الأمومة والبنوة، حتى استعادت المسافرة صحتها وأشواقها.

بعد خمسة عشر يومًا كان حفل متواضع قد أقيم في بيت طيني متواضع يسكنه حلوف، وأمه، وعدة أفراد من أبناء الجبال.. وكم كانت دهشتي عندما رأيت الممرض المثالي يمسك بعود لامع، ويغني أغنيات سلسة لـ«إبراهيم الكاشف»أ كان أجمل صوت أسمعه في تلك البلدة.

السَحَرة

لم يكن «دمبابة» سائقًا عاديًّا من سائقي الريف الذين اختصت خبرتهم بالوعورة، والشيطنة في الكثبان، واختراع الطرق غصبًا عن هرج الطبيعة، وتوهانها المضيِّع، وعندما يدخلون المدن يدخلونها ركلًا غير عابئين بمرورها، وتقاطعاتها، وإشاراتها الحضارية.. لكنه كان سائق قرى وسائق مدن، وسائق فضاء أيضًا لو أتيحت له فرصة. كان من قبيلة التكارنة، إحدى قبائل المنطقة المتينة البنيان.. أولئك الأفارقة الذين يأكلون النار، ويستعذبون المشاق، ويزهون بهياكل ماردة تبدو جلية وسط هياكل البلدة القزمة. كان دمبابة رئيسًا للسائقين في المستشفى، تحت إمرته باص، وسيارتان نشطتان، وأخريان عاطلتان وعدة براميل للوقود، وثلاثة سائقين آخرين هم عياله الذين أنبتهم من صلبه.. لا أعرف كيف احتلت تلك القبيلة سواقة المستشفى وحدها، ممثلة في دمبابة وعياله، ولا كيف احتلت حياكة الملابس البلدية والطواقي في السوق ممثلة في أخيه وعياله، وأيضًا بسط الأمن الفقير في المنطقة ممثلة في عدة عساكر هم ابن عمه وعياله.. ولا أنسى أن أطيب طعام يعد في البلدة بخبرة العم «سعيد» ومقاديره البعيدة عن مقادير الكتب والفندقة.. كان طعامًا تكرونيًّا أيضًا، وحتى سعيد نفسه كان من أسرة دمبابة.. وربما كان زوجًا لأخته.

لقد قضيت عدة أيام تفكيرية أستغرب فيها، رصدت قبائل البجة فوجدتهم عددًا هائلًا.. يمكن أن يخرج من رطانتهم عشرات السائقين

والطباخين، وترزية الملابس، وحراس الأمن الذي لا يحتاج في حراسته إلى عناء كثير، فقط لسان راطن، وزي كاكي متسخ، وبندقية عتيقة تتردد كثيرًا قبل أن تثرثر بالرصاص. وقبائل البني عامر الحدودية ذوو السكن القديم والاستقرار الموزع بين الوطن و«إريتريا» كانوا أشد كثافة، ومهاجرو الشمال القادمين من لغة النيل وخصوبة الأرض الزراعية فاقوا التكارنة مكرًا وشيطنة.. ولعل هؤلاء ألهتهم تجارة المنطقة، ورزقها الموسمي المربوط في نجاحات الدلتا وإخفاقاتها عن أي نزوة أخرى. كانت الأقاويل كثيرة، وكان موزعو تلك الأقاويل كثيرين، ولهم أنوف تشم دهشة الغرباء، حتى لو دهشوا بها في غرف مغلقة.. ولعل هؤلاء توصلوا إلى استغرابي الذي استغربت به في كثافة الليل، مستلقيًا على سرير فقير في حوش البيت أحدق في الفضاء الساكن.. برفقة لا أحد.. فقد جاءني أحدهم، وكان يعمل أمينًا لمخزن منتهك في المستشفى تتسلل عقاقيره خلسة إلى السوق دون أن ينتبه أحد.. قال:

- هل أدهشتك عائلة دمبابة؟

- قلت: كيف عرفت؟

- كل المسئولين يندهشون مثلك إلى أن يعرفوا.

زاد استغرابي بشدة.

- وماذا يعرفون؟

- إن عائلة دمبابة تتعاطى السحر.. تكبل به المسئولين، فلا ترد لهم رغبة.

قال الأمين، وانسحب من وجهي تاركًا أثرًا عاديًا على ذلك الوجه، كانت قناعاتي بعيدة عن تلك الخرافة، وكان ذلك التوظيف الريفي يصلح فنتازيا غنية ربما أكتبها يومًا، لكن مسألة التكبيل، وإجابة

الرغبات «الدمبابية» دون حق، استنادًا إلى سحر أو شعوذة.. لم يكن يخطر لي على بال.. مارست وظيفتي الريفية بجدارة، كنت أداوي المرضى، وأطعم الأطفال، وأعقد مجالس المحاسبة وأفضها، وأسافر برفقة رئيس السائقين نفتش على القرى، والمراكز التابعة لمستشفانا.. ونصل حتى إريتريا. وفي أحد الأيام هاجر أحد عيال دمبابة السائقين إلى المدينة ساعيًا وراء مجد يحلم به، وبقيت وظيفة سائق تنادي الناس في البلدة.. لقد جاء أكثر من خمسة سائقين كلهم أساتذة في قهر الوعورة، مثلما هم أساتذة في قيادة المدن الناعمة.. وجاء دمبابة أيضًا بسائق من عائلته.. كان غلامًا بشارب خجول، وجسد هش، وخبرة في القيادة لا تتعدى خبرته في لعب كرة الشراب، وكان من دواعي دهشتي أنني وبقية أعضاء لجنتي التعيينية وافقنا على تعيينه، وضمه إلى أسرته في مستشفانا البعيد، دون أدنى تردد. وكان أكثر ما أثار حيرتي أن أحدًا لم يستغرب، حتى السائقون الآخرون الذين تقدموا بخبرتهم بدوا عاديين وضاحكين، ويهنئون السائق العجوز وصبيه المعين بتقبيلهما على الرؤوس.

حموضة بعيدة

كان «عاطف علي» هو أول عاطف يوجد في البلدة البعيدة.. فبدا في وسط إدريس، وأوشيك، وشاشوق.. ورطانة القبليين التي تعقد أسماءهم، أشبه بخطأ أو نشاز يلحظه الملاحظ بسهولة. وعندما وُجِدْتُ بنشازي الاسمي الذي كان أيضًا واضحًا في وسط الرطانة، بعد عدة سنوات من ذلك، تآخينا في النشاز.. والغربة، والحموضة التي نبتت في ما بعد.

كان «أمدرمانيًّا» من بيت المال.. ذلك الحي العريق الذي أبر البلاد بكثير من الأفذاذ، وأرسل إلى البلدة أول عاطف ليتخذ البعض اسمه خميرة أنتجوا بها كثيرًا من «العاطفين».. وأظن أن هؤلاء قد كبروا الآن، وأحدثوا بالتعاون مع الذين أنتجتهم خميرة اسمي، وخمائر ضباط إداريين وحرس في الحدود، وغرباء زراعيين، توازنًا أخّاذًا في أسماء البيئة، ربما تكون له الغلبة في أجيال لاحقة.

كان العاصمي بيطريًّا سحبته الرواتب الخضراء لإحدى المنظمات، إلى المنطقة، فعمل بسعادة لا يحلم بها أقرانه ممن تبعوا الوظائف العامة، رغم وجودهم في المدن.. تحت أسقف الضوء، بين ضجيج الشوارع وسهولة الحياة نسبيًّا.. كان عمله مختصًّا بالأبحاث البيطرية، والأعلاف، وقد كان مثار دهشتي لأنني لم أجد في ماشية المنطقة، وأعلافها ما يستحق البحث.

كانت بداية تعرفي إلى عاطف بداية حامضة.. فقد جرته حموضة

المعدة في إحدى الليالي التي كنت فيها ما أزال غريبًا يتلفت بغزارة، ويجوس بحواسه في غوامض البيئة.. قال العاصمي.. منذ ثلاثة أعوام وأنا كذلك.. لقد دخلت البلدة وأنا على استعداد لأن أهضم الصخر، والآن لا أستطيع حتى أن أهضم كلمة ليست في محلها.

واسيته بقنينة كثيفة من شراب «الموكسال» الذي كان متوفرًا في مخازننا بشدة، تنفد تواريخه ويبقى، أو يراق، فقد كان دواءً «بائرًا» لا يقبل عليه أحد، كان المرضى المحليون يموتون بحموضتهم، يلكزونها بكثير من الوصفات المحلية، ولا يقربونه.. ولم أجد تفسيرًا لذلك السلوك أبدًا، سألت العشرات من أصحاب «الحموضات» المزمنة، ولم أتلق ما يدين ذلك الشراب، بالعكس فهو ذو نكهة حلوة، وعضلات مقاتلة تجعل عراكه مع الحموضة عراك منتصر في النهاية.

تغلغل العاصمي في صداقتي، وموكسالي، ومؤاخاة اسمي| وجر معه عددًا من الغرباء كانوا يعملون في رش الجراد، وتشذيب غابات «المسكيت»، ورعاية الماشية رعاية بيطرية، جرهم من حموضات متنوعة اكتسبوها أيضًا من وجودهم في البلدة. كانوا يجرعون الموكسال ويثرثرون، وقد كانت لهم ذكريات.. ونكبات، ودموع أحيانية يذرفونها غصبًا.. وكم من مرة طغت حموضتهم الباكية على عضلات الموكسال وصرعته.. كنت أقول للعاصمي:

- إنه التوتر.. والغربة.. أصحبه في سياحة علمية بين الأعصاب والمعدة، وجفاف البيئة، وأعيده يتأملني.. وقد خيل لي كثيرًا أنه يسألني.

- ألست غريبًا ومتوترًا مثلي؟

وفي أحد الأيام فاجأتني الحموضة، كنت عائدًا من عشاء هزيل وعادي لم ترق فيه الشواءات، وما احتلت «الكسرة» بليمونها وشطتها

الخضراء أي مكانة فيه، أحسست بنفس إحساس أولئك الغرباء الذين كانوا يجرعون الموكسال ويثرثرون.. جرعته وثرثرت في نفسي.. لعلها الغربة.. لعله التوتر.. بحثت عن العاصمي، وغربائه وأخبرتهم.. وخيل إليّ أن شماتة حامضة قفزت إلى آذانهم وهم يسمعون.

في ما تلا ذلك من أعوام أصبحت الحموضة إحدى حقائبي الملازمة.. ترافقني في السفر والعودة، والاستقرار.. لم تكن ناتجة عن خلل داخلي ولا خارجي| فقط حموضة مشاكسة تذكرني دائمًا بالعاصمي صاحب النشاز الاسمي في تلك البيئة البعيدة.

شاعر بعيد

كان عشـقي للكتب والمكتبات، ولا يزال، عشـقًا كبيرًا، عشـقًا له تاريـخ، وجغرافيـا، وتضاريـس تتعمق في الدم كلما تعتَّق، كان «رفعت ضـرار» السـواكني الأبيـض.. والصديـق للعائلـة، هو أول من اسـتولى علـى طفولتـي الهائمـة، حوَّلهـا إلـى طفولـة قارئـة، وابتعد بهـا أعوامًا مـن طفولـة الأطفال، التي اكتفت بلعب البلي والكرة، والمشـاغبات.. وحين كان المراهقون يسقطون صرعَى في شَرك العيون والابتسامات، والرسـائل الملتهبة، كنت أسـقط في شَـرك أي كتاب يغازلني حتى لو كان غـزلًا ممزقًـا، ومتسـخًا، ومركونًـا فـي أي رف كاسـد. أيضًا حين تعلمت السفر، والعودة، والتسوق، لم أكن أطعم حقائبي هدايا طازجة يستمتع بطزاجتها الأهل والأحباب، كنت أتخمها بوجبات الكتب إلى حد الإيذاء، فتحملها وهي كارهة. وكنت بذلك أكثر مسافر في العائلة لا يخب الفضول إلى حقائبه، حين يعود من السفر، كان الفضول يعرف ما في تلك الحقائب.

حين انغرستُ في البلدة البعيدة، انغرس معي ذات الجوع القرائي الذي يلازمني، التهمت كتبي التي أحضرتها معي في عدة أيام، وبدأت أتلفت، مدفوعًا بنغزات من ذلك الجوع.. كانت البلدة شـديدة الفقر، وكثيفـة الأميـة، ينحصـر متعلموهـا في زمرة من الغربـاء ينزوون تحت عزلـة الغرابـة، وعدد من المعلمين، واللاجئين، والتجار الذين اختزلوا اللغة إلى أسماء سلعية محددة، يكتبونها آليًّا في دفاتر السلف والدين،

نقّبتهم واحدًا.. واحدًا، وعثرت في خزائن بعضهم على كتب كانت هامة في ما مضى، وأكلتْ «الأرَضَة» أهميتها تمامًا.. عند ذلك بزغ في تخبطي «سر الختم»، فأطفأ الجوع بكفاءة..

كان اسمًا «شايقيًّا» خالصًا، يجاور النيل، والنخيل، وينادي بأصوات تلك المنطقة الخصبة في الوطن، ولم أكن أتوقع أبدًا أن أصادف ذلك الاسم في تلك البيئة المغبرة، ينادى بأصوات الرطانة العرجاء، فتصيبه وتخطئه، سألت عن هويته، وأماكن وجوده، فقادتني البلدة كلها إليه، ليس لشهرة فيه، ولكن لضيق في البلدة، يحوِّل النمل إلى جراد، والهمس إلى صراخ «مايكروفونيّ». قال الذين قادوني إلى بيته المتواضع في أحد الأركان البعيدة إنه شاعر في قامة «ود هداب» كبير شعراء المنطقة، لكن شيطانه عدوانيّ، لا يحتفي كثيرًا بغرباء الحكومة.

لم ألتفت كثيرًا إلى مسألة عدوانية الشياطين، ولا أظن أنه يملك شيطانًا أكثر عدوانية من شيطان «محمد آدم» الشاعر القاهري، الذي آخيته في فترة ما؛ حتى اختصني شيطانه بكثير من الوُدّ.. حثثت الخطى إلى بيته وبأسرع مما توقع المرافقون.

استقبلني العدوانيّ استقبالًا يليق بشهرته، وفي بيت دَلَّت كل مفردات ترتيبه، أنه بيت أعزب صِرف، لم يعش بين جدرانه ذوق أنثويّ، كانت الكتب عيالًا متسخة يسيل من أغلفتها المخاط، تتبعثر في فوضى البيت، وتأكل كثيرًا من مساحته، وكان العدواني مستندًا إلى صف منها، ويبدو أن غفوة صارمة كانت تمسك بمزاجه. قال دون أن يسأل عن هويتي، التي يبدو أن البلدة أوصلتها إليه قبل أن أصله.. فقط مسح هيئتي الغريبة بعينين خمسينيتين كانتا تشعان دمًا:

- كلكم جواسيس.. وتسرقون الشِّعر لتنسبوه إلى أنفسكم..

حتى الفرنسيين الذين جاءوا بزعم تغذية الأطفال ذهبوا وهم يحملون شِعري لينسبوه إلى «بودلير».. اذهب لن تسمع قصيدة، ولن تقرأ كتابًا من هذه الفوضى..

شـخّصت حالته بقليل من التنقيب في معلوماتي المتواضعة عن الطـب النفسـي، وبذلـت مجهودًا جبارًا حتى اسـتملته إلـيّ، كان مثقفًا منفيًّا في روحه، لم أعرف ظروف هجرته إلى هذه البلدة، لكنني أخمن ظروف انتسـابه إليها، أسـمعته قصائد من رامبو، ولوركا، وأمل دنقل، وأسمعني قصائد شديدة الإعياء تخرج لاهثة.. وعندما انتقلت إلى كتبه الفوضوية، انتقلتْ معي أريحيته، أهداني العشرات منها دون أن تفارقه الإغفاءة الصارمة، أو يتغير استناده إلى صف الكتب المغبَّر.

حين عدت إلى مدينتي بعد عام ونصف من ذلك، كانت حقائبي كالعادة بعيدة عن فضول الأهل والأحباب.. كان الفضول يعرف سلفًا أنها مثقلة بالكتب، ولن يعرف أبدًا من أيٍّ عرين انتقيتها.

الشاهد

كانت الشهادة في عقود القِران، وما زالت إحدى سمات التكريم التي تغلّفّ بملاحتها المكرمين، وتضفرهم نجومًا في الحفل تقترب في إضاءتها من إضاءة العروسين. كان الشاهد في عُرف ذلك اليوم الاستثنائي وجهًا غير عاديّ، وسلوكًا غير عادي، وتوقيعًا يُحترَم إلى حدٍّ كبيرٍ.. ربما كان موظفًا ذا وظيفة براقة، أو تاجرًا ذا جاه «بنكنوتيّ»، أو دعامة سلطوية تكسو الحفل برداء من الهيبة.. وقد عرفت والدي شاهدًا كلاسيكيًّا في ثُلثي عقود القِران التي حُرِّرت في العائلة في أثناء حياته، كان يذهب إلى حفلات الزفاف بتلك الوجاهة، وينصرف بتلك الوجاهة. أيضًا كان الطبيب العظيم «توم حامد» الذي يحظى باحترام أخّاذ يمتد من قرية «أم كدادة» في غرب البلاد حتى مانشستر ودسلدورف.. والإسكندرية، واستوكهولم.. توقيعًا مألوفًا في مناسبات الساحل.. لا تشبع عقود القِران إلا به.

ذلك اليوم كنت مدعُوًّا للشهادة في أحد عقود القران في البلدة البعيدة.. كانت الدعوة الأولى لمثل تلك الورطات.. لم تُكرّر أبدًا.. لم أكن ذا جاه «بنكنوتي»، ولا سلطة مهيبة.. لكن لمعانًا في وظيفتي الإقليمية شد إليّ المحتفين وأدرج اسمي في خارطة احتفائهم. أيضًا كان أحد قطبي الاحتفال معروفًا لديّ.. إنها العروس.. إحدى الدايات اللائي أعتز بكفاءتهن في المستشفى الفقير، والتي ستُزَفّ في ذلك اليوم إلى أحد فقراء البلدة.. كانوا قد نصبوا خيمة من قماش

معتلّ.. أضاءوا العتمة المستفحلة بفوانيس مكدودة، ووزعوا مرطبات مـن عصيـر العرديب، وعشـاء من فتة اللحـم.. كان مدلوقًا على امتداد الحصائـر فـي اعتـلال الخيمـة، ومن بيت قريب يبـدو في العتمة كظل خرافي. كانت تندلق أصوات المغنيات الريفيات لتعطي اللوحة سماتها المطلوبة.. إنه العرس الكلاسيكي في البلدة، تسري ألوانه على الغِنى والفقر واليُسر والعُسر، ولا ينفد من شَرَكه أحد.

كانـت طاولـة الشـهادة مميـزة إلـى حد مـا، فقد سُـترت بقماش أحمـر، وبـدا مبخـر فخـاريّ يرقـص عطـره مـن حولهـا.. كانـت ثمة كولونيا رخيصة، وقلم من الحبر الجاف، ومُعمَّمون محليُّون يروحون ويجيئون، وبين لحظة وأخرى كانت تصافحني يد، أو تقرصني همسة، أو يزحـف زاحـف إلـى مهنتي ويشـكو علته غير عابـئ بتلك الطقوس البعيدة عن وصفات الدواء. وكان الشـاهد الآخر مهمًّا للغاية.. ولعله الأهم في البلدة كلها والبلاد المجاورة.. إنه الوجيه «حسـن» صاحب التجـارة والأرض، والعطـلات المرفهة في لندن وباريس، وحين أكمل «المأذون» مهمته، من دعاء واستدعاء ومخاطبة وكلاء العرس، طالب بتوقيعي.. فمنحته له بسخاء.

أيـام قليلـة مضـت.. نسـيت فيهـا ذلـك الطقـس والتوقيـع الذي منحتـه، كنـت أرى الدايـة العـروس موظفـة عاديـة تتلقـف الطلـق.. والصراخ.. والأطفال، تصحبني في عنابر الولادة.. وعمليات التفريغ.. والقيصريات.. كان وجهها كحائط.. وحِنّاؤها العرسية تبدو أكثر شحوبًا من حِنّاء المتزوجات. كنت أحس جفافًا في صوتها، واحترامًا إجباريًّا تلفحني به، ولا أحسـه نابعًا من قلب أو شـعور.. وحين تضحك من موقـف أو مفارقـة كانـت ضحكتهـا تتوقف قبـل أن تكتمل. وفي أحد الأيـام عرفـت السـبب وارتعدت حزنًا.. قال لـي أحد أصدقائي التجار

ونحن نحتسي قهوة زنجبيلية في محله:

- أنت كسرت حظ الداية.

قلت: كيف؟

قـال: لقـد طُلِّقـت بعد يومين من العُـرس.. وكانت الوحيدة التي تُطلَّق منذ أربعين عامًا في البلدة.. يقول الناس إن السبب هو شهادتك في عرسها.

رمضان والبلدة

من أكبر النعم التي كان يحظى بها الغرباء في البلدة البعيدة، نعمة قدوم شهر رمضان، كانت تلك النعمة كثيفة وذات كرم جبار، يلملم أولئك الغرباء من عزلة الغرابة، وموائد العزوبية الهزيلة، والحموضة المدمنة لشراب «الموكسال» ليردمهم في مجالس العُمَد ذات المساند والوسادات، ومساكن التجار ذات الصوالين، والمطابخ، والمياه المثلجة بتكنولوجيا «الكيروسين» التي كانت تكنولوجيا فارهة لا يحظى بها سوى تلك المساكن، ويستمر ردم هؤلاء الغرباء وغرابتهم حتى في بيوت الطين المحلية العرجاء، التي تنقلب بقدوم الشهر المبارك إلى بيوت سلسلة، ذات ألسنة تدعو، وبروش سعفية تجود بما لَذَّ وطاب.

كانت «خديجة إدريس» هي الطاهية المتوفرة في أيام الكساد العادية، واحدة من المحليين، ذات موهبة قاصرة، وفّرتها الإدارة الإقليمية كواحدة من المزايا الرعناء في سكن الأطباء، لتضفي على حياة العزلة مذاقًا أكثر مرارة، وطوال إقامتي في البلدة لم أذق من موهبتها القاصرة سوى الطعام «المفروك» بلا مبالاة، ولا مزاج، والكسرة التي كنا نحتال على خشونتها بكثير من الشطة والتوابل. فتحتال على احتيالنا، وتتبختر في غرف المصارين مُرَّة وخشنة. كانت نعمة رمضان تقمع تلك الطاهية، تنهرها بشدة، وتمنحها إجازة خاصة تنفقها في الخمول، والتراجع بموهبتها القاصرة أكثر، حتى إذا أطل العيد، أطلت ليعود الهزال العاديّ إلى أسوأ مما كان قبل ذلك.

كان الوجيه حسن هو سيد الدعوات في البلدة، يتكرر اسمه على جدول الدعوات الذي كنا نعده، ونلصقه في أذهاننا وغرفنا المتربة بشدة، وكم من مرة تعنت إصرار الوجيه، ليختطف كثيرًا من الدعوات التي لا تخصه، ويحول مسارها إلى بيته. كان حسن حكومة محلية.. له كلمة، وخزائن، وأراضٍ، وجيش من المحليين يرسِّخ تحكمه، وكان يعتقد بغلظة أن كل غريب في البلدة ضيف في حكومته، لدرجة أنه سألني عند قدومي إلى البلدة وهو متعكر المزاج بعد أن اكتشف خلو تكليفي الرسمي من اسمه:

- كيف لم يرسلوك إليّ؟

أيضًا كان «هاشم» مضيفًا شهيّ الضيافة، تركض دعواته المتعنتة جنبًا إلى جنب مع دعوات الوجيه، وتبزها أحيانًا. كان من إحدى القبائل المحلية، امتلك سعة في العيش خفضت كثيرًا من محليته الراطنة، وأهّلته ليصاهر إحدى أُسر الشمال المهاجرة إلى البلدة، كان على عكس الوجيه تخلو لغته من التضاريس المالكة، وينساب في وسط ضيوفه ليحولهم إلى مضيفين يكرمونه شخصيًا. وما زلت أذكر موائد «الخمس نجوم» التي أنشأها خصيصًا لضيافتي وساهمت في إضافة كيلوجرامات مرفهة إلى كياني المعتدل آنذاك.

في وسط هذين المالكين لحقّ النقض في البلدة، كان يتأرجح كثير من العُمَد والنُّظار، والعاديين من سكان حي التكارنة، وبقية الأحياء، كانوا يزحفون إلى جدول الدعوات أيضًا، يزحفون بنعومة، وخشونة، وحَلِف بالطلاق، وأحيانًا بألسنة خافتة لا ترقى إلى مستوى الإمساك بكلامها.. فقط كانت مجرد جمل لإبداء حسن النيات، وكان العمدة «أوهاج دريري» هو أكثر المتأرجحين هياجًا، كان يبدو في ثوب العمودية الفسيح، وكلامها الفخم، ورطانتها التي لا تردّ محليًا،

أكثـر ثـراء مـن أولئـك، لكنه كان كثيرًا ما ينـزوي أمام ركضهما، فتأتي دعواته خافتة من طرف اللسان.

ولعـل وجـود عـدد مـن أهلنـا الشـايقية في تلـك المنطقـة، كان يمنحني كثيرًا من الدفء الشخصي، كان رمضانهم آخر، ليست لموائده مواصفات الفندقة والترف، كانت موائد عادية، تسـيطر أقراص القمح المتينـة علـى كرمهـا، وتضفي الذكريات المنبعثـة من هنا وهناك تحلية خاصة لا تضارعها أي تحلية.

زائدة شقراء

لم يكن موظف الإغاثة الدولي وهو يصحب زوجته في مهمة إغاثية بالعالم الثالث، يظن أن ثمة مكروهًا لادغًا سيلحق بتلك الزوجة.. بالطبع لم تكن جولته الأولى، ولن تكون الأخيرة بحكم مهنته التي انتزعت كثيرًا من رُقيِّه، علَّمته السفر على طائرات الفوكرز المنقرضة، وشاحنات التاتا الهندية، التي تخدم بعمر ممزق، وظهور الإبل والحمير، أيضًا لم نكن وحدنا عالَمًا ثالثًا، فذلك العالم يمتد ويتسع كل يوم، يمده التمرد الخشن، وتوسِّعه المجاعات، ويرصف قادة الشعوب دروبه بكل ما أوتوا من قوة. كان الموظف حائرًا ومرتبكًا، وتلهث في ذهنه تلك الصورة الحية لمستشفانا الفقير الذي طالعه بكثير العجرفة، ولا بد أنه قارنه بمستشفيات أوروبية ناعمة.. يشتاق إليها المرض، وتسند شوقه. قال وهو يمدد زوجته على طاولة فحص اخترعتها البيئة بقياسات نادرة:

- يكاد المغص يقتلها.. أرجوك افعل شيئًا..

أصلحت من هيأتي الطبية جيدًا، ثبت وجهي على ملامح معقدة ونظارتي على عينين صارمتين، وسماعتي التي ما خرجت أبدًا من فحوصات السُّل، والربو، وسوء التغذية.. أشركتها في ذلك الفحص النادر في تلك المنطقة. كانت الأوروبية ملقاة على مسئوليتي، بعيدة بعشرات الساعات عن أي فحص متحضر، وكان الأوروبي يزداد توترًا، لدرجة أنني خلت عينيه تزاحماني مهمتي العسيرة، وعندما أنهيت

فحصي وواجهته:

- إنها الزائدة الدودية.. لا بد من عملية عاجلة.

ارتمى على صلف غير متوقَّع في تلك الظروف، وصرخ:

- في أي جامعة تخرجت؟

وخلته يجرجر لساني من منابته لأنطق.. دبلن.. أوكسفورد.. وعندما قلت له.. القاهرة، استرخى قليلًا لكن يداه ظلتا تحتفظان بالرعشة.

كانت غرفة العمليات في مستشفانا الفقير، واحدة من الغرف المحبِطة، ولعلها الأكثر إحباطًا في العالم كله، كانت عدتها طاعنة في السن قدمت بافتتاح تلك الغرفة في زمان بعيد، وظلت تحتفظ بالوظيفة بعيدة عن أي تقاعد أو نهاية خدمة، وكانت الجدران التي تحتضن تلك العدة سوداء من بخار التعقيم الذي يضخه موقد غازي طاعن في السن أيضًا، ذلك إضافة إلى الإضاءة الميتة، وطاقم البشر الذي كان يصلح للرقاد على الطاولة أكثر من العمل فوقها. قلت لكبيرهم إدريس الذي يحمل مفاصل «روماتيزمية» تعوي باستمرار:

- الآن أدخِلوا المريضة.

كانت الزائدة الأوروبية شديدة الخبث، منتفخة، وملتصقة بكل ما جاورها من الأحشاء في وُدّ غريب، أدركناها خلال جرح تجميلي بسيط أردنا أن نفخر به في وسط أولئك الغرباء، وعملنا فيها بصبر، حتى خرجت كاملة، وإمعانًا في منازلة ذلك الصلف الأوروبي، وضعناها على وعاء «فورمليني»، وسلمناها للموظف الدولي في ما بعد ليفعل بها ما يشاء.. وعندما انتهينا من ذلك النِّزال، وخرجنا إلى عَراء المستشفى، كانت البلدة كلها هناك.. قامت الألسنة والأقدام بمهمتها خير قيام كالمعتاد، وأرسلت إلينا الفضول المحلي ليشهد

تلك الزائدة الشقراء، وهي تقمع بعيدًا عن مواطن الشُّقرة.

خمسة أيام أمضتها الأوروبية في ضيافتنا، نقلناها إلى غرفة خاصة أُعِدّت على عَجَل.. انتقينا عددًا من الممرضات اللائي يعملن بملاحة قروية، ليتناوبن رعاية نقاهتها، وخرج العم «نوري» طباخ المستشفى الشمالي عن طوره، وطور إمكانياته، فسند تلك النقاهة بأطباق ما تسكعت أبدًا من قبل أمام المرض المحلي، وقد أسهم الفضول البيئي الذي تحول الآن إلى صداقة، وربما واجب، في رفع دخلنا البسيط الذي كنا نستخلصه من الزيارة، كان الموظف الدولي مبتهجًا، اختفت رعشة يديه، وظل يرافق النقاهة، ويقتسمها مع الزوجة حتى وقفت على صحتها من جديد.

حين سافر الأوروبيان بتذكار الجرح، والزائدة المحنطة، تنفّست بعمق.. رأيتهما يلوحان من عربة إغاثية ويبتسمان، لم يكن ذلك ليرتقي بعالمنا إلى مصاف أبعد، لكنه يظل تذكارًا يتسكع مع الأوروبية في مدن بعيدة وناعمة.

كمثرى

كان مطعم «حليم» الذي يحتل مكانة بارزة في سوق البلدة، من أهم المزارات التي لا بد للغرباء من زيارتها، تمامًا كمتاحف المدن، وفنادقها، وحدائقها المغردة، لم تكن أهميته تنبع من كونه مطعمًا راقيًا رقيًّا محليًّا، يطارد الذباب بمبيدات «الفليت» و«الشلتوكس» ويقدم أطباق العشاء متبوعة بابتسامات عمالية لمحليين في أزياء نظيفة ولامعة فقط، ولكن لأنه المطعم الوحيد في البلدة الذي كان ينزح بموعد إغلاقه بعيدًا، متجاوزًا كثافة الظلام، وفقر الليل، كان متّكأً لنزيف الغرباء، يرصفون ليله بذكريات أسيانة، وثرثرة حزينة، وربما انشغلوا بلعب الورق، وعادوا إلى بيوتهم بلا ليل وحيد.. ومفكر. كانت البلدة قليلة الغرباء، معظمهم حكوميون جاءوا بمواصلات الخدمة الإجبارية التي تُقِل حديثي التخرج إلى كل ربوع الوطن، وتعيدهم بعد قضاء تلك الخدمة مَرَدَةً يسيرون في سكك الحياة بلا خوف..

كان «حليم» نفسه غريبًا.. لم يسمع بالبلدة إلا حين جاءها موظفًا غضًّا في مكافحة الجراد الصحراوي الذي كان آفة تزدري جهود المزارعين، وتحوّل محاصيلهم المرويّة بالعَرق إلى تلف تذروه الرياح. ولعل «كيوبيد» أرعن كان يقنص لحليم بالبلدة، جره من كسائه العاصمي إلى حب متأجج، وزواج قروي، وعيال يرطنون بشبق، ولم يبق له من عاصميته القديمة سوى ألبوم مغبر للصور، يتحرك بين زبائنه، وغربائه الليليين كلما هاجت أشجان صاحب المطعم. أيضًا

كان بعض مواطني البلدة الذين ذهبوا إلى المدن، وعادوا بتعليمهم وتجارتهم، وفلسفتهم الحياتية يأتون، ينغرسون في وسط الغرابة بأزياء كانوا يستخدمونها في المدن، وضاقت على ترهلهم، ولغة كانوا يستخدمونها في المدن أيضًا، واعوجَّت على ألسنتهم. وربما انحشروا في جدال، أو أخطأوا في تذكر مَعْلَم ما، وعادوا إلى بيوتهم مبتسمين.. ولا أنكر أن ذلك الزخم الغريب في مطعم حليم، استفزني، وظَّفته في رواية «نار الزغاريد»، وشكَّل جزءًا هامًّا في كيانها السردي.

من هؤلاء المحليين كان «آدم كمثرى»، معلم ابتدائي، عاد بتعليمه وفلسفته، وعمل في البلدة كأنه لم يبرحها، لكن ذكريات الحضر كانت تناوشه من حين لآخر، فيأتي، ينحشر في ثرثرة الغرباء.. كنت أراه بكيانه الشاب، وقمصان «التترون» التي ضاقت على ترهله، وحين ينحِّي سعوطه جانبًا، ويدخن السجائر أسوة بغرباء مطعم حليم، تبرز محليته إلى العيون أكثر. وفي إحدى الليالي كانوا يتحدثون عن خيرات المدن، وأطعمتها، يقارنونها بالطعام المحلي الذي لا يتعدى في أفضل حالاته «السلات» الذي كان لحماً، يُشوَى على الحجر.. تحدثَ المدرس عن «الكمثرى»، أسهب في وصفها، وطعمها، وجعل حتى الغرباء مشدوهين.. لم تكن الكمثرى من فواكه البلاد أبدًا، ولا زارته إلا نادرًا، تحت عباءة التخفي، لتستقر في حلوق ليست حلوق أبناء الوطن، ولكنها حلوق قلة يسكنون الوطن، كأنهم يسكنون بلادًا أخرى.. كنت حاضرًا لذلك الليل، وكنت أحد الذين تذوقوا الكمثرى تذوُّقًا عابرًا، ليس داخل الوطن، ولكن خارجه، ولمرة واحدة فقط اعتبرت نفسي فيها محظوظًا.. حين جاء أحد أقاربي إلى مصر، وجادت لنا زيارته نحن الطلاب آنذاك بقليلٍ منها.

ارتعبت من ذلك الوصف الغريب الذي انحشر فيه المحلي،

وأخضع نفسه لتحقيق طويل من كل جلساء مطعم حليم، عن كيفية وصول الكمثرى إلى جوفه.. كان المحلي في حقيقة الأمر يصف ثمار المشمش.. والتي كانت أيضًا من فواكه الوطن النادرة، لكنها ندرة أخف وطأة من فاجعة الكمثرى.

منذ تلك الليلة تحول آدم علي، مدرس المرحلة الابتدائية، إلى «آدم كمثرى»، كان يحضر ليل الغرباء صامتًا، وبعيدًا، وبكساء محلي بعيد عن قميص الحضر الذي ضاق على ترهله.. تتجول الثرثرة في مواضيع شتى، فلا يركض خلف تجوالها.

وجوه وَوَرَمُ الإبل

كانت الوجوه التي تلفت أنظار الغرباء في البلدة البعيدة شحيحة للغاية، كأن ستارًا غير مرئي يحجب النظر عن الالتفات، أو الالتفات عن النظر.. كانت السمات متقاربة، مضاعفات الخليط القبائلي تبدو جلية، والدم القبلي الخالص يبدو جليًا أيضًا، وكان وجه الفقر هو الوجه الأكثر رسوخًا.. ولمعانًا.. يستند إلى دعامات قوية، ويحمل الملامح داخله بثقة نادرة.

حين يأتي الغرباء يتلفتون، لعلهم يبحثون عن دفء، أو يفرّون من فزع، أو ينشئون علاقات حميمة بالبيئة تبقيهم جيِّدي الهضم، وبنفس القدر كانت البلدة تتلفت.. إنه السلوك العادي الذي يحيل الغرباء إلى مواد مشعة، وشديدة التعقيد تسري مكوناتها في الهمس، والصراخ، والفضول الذي لا ينتهي إلا حين يحمل أولئك الغرباء دمهم ويرحلون.

كان وجه «تماضر» الموظفة في مؤسَّسة الزراعة، لافتًا للنظر بصورة مؤسفة.. إنه الوجه الحضاري الراقي في وسط بيئة الرطانة. ولعله الوجه الذي جر عديدًا من الغرباء إلى عشق، وبكاء، وخطوبات، ومشاريع زواج متهورة وبعيدة عن الوعي، انتهت إلى لا شيء... كانت الحضارية مُتصارَعًا عليها من قبل ثمانين خاطبًا محليًا.. يحملون في دمهم مُدَى، وعكاكيز.

كان وجه العمدة «أوهاج دريري» عمدة قبيلة «الأريقا» المحلية، لافتًا للنظر أيضًا.. إنه الوجه القاسي، والمشدود الأعصاب والمتفه

لكل شيء، والمنتصر على بيئة الجوع، والنازّ دهنًا وعرقًا.. وهو الوجه الروائي المفضل لديّ.. أستطيع أن أكتبه في عدة فصول كتابية دون أن أنسى ملمحًا فيه..

كان وجه «سليمان» الممرض لافتًا للنظر أيضًا.. وجه فيه بكاء، ودم، وعبارة غير مرئية.. عبارة تكبلك كمسئول، وتقول صراحة: تَغَاضَ عن أخطائي، ولا تعاقبني.. وقد أخطأ ذلك الوجه بالفعل عشرات المرات وشفعت له تلك العبارة غير المرئية.

لكن «أحمد ورم الإبل» كان هو الأشد لفتًا للنظر لدرجة الدهشة، وتوتر عضلات الرقبة كلها.. لافتًا كوجه، وجسد، وحكايات بلا حصر.

حين رأيت «ورم الإبل» لأول مرة، ظننت أن جسده الممتلئ لدرجة الفيضان المدمر، هو الذي قيده إلى ذلك الاسم المهول، لكنني اكتشفت بعد ذلك أن الاسم هو الأصل في تلك الطبعة النادرة، وإنما جاء ذلك الجسد المهول مؤخرًا، ليؤكد الاسم، ويزيده بريقًا. كان ضخمًا لدرجة أن جسده كان بلا خطط، ولا مفصلات، ولا يفرِّق أي تشريح مهما برع بين يديه، وقدميه، ولسانه، وإصبع رجله الكبير.. كان أضخم من قبيلة، ويستهلك وقتًا، وحذاء، واتكاءات، وقومات وقعدات، وعرق غير قابل للوزن، كلما مشى في البلدة.. ولعله ابتكر حيلة مضنية للبقاء موظفًا مدنيًا.. يعمل في مجال الزراعة، وربًّا أُسريًا يعود إلى بيته بمرتب في آخر الشهر. كان يؤدي وظيفته، وهو راقد على «بُرش» من سَعَف الدّوم، في حوش المؤسَّسة الزراعية.. يكتب، ويقرأ، ويوقِّع، ويشرب القهوة والشاي أيضًا..

قال الخفير الواقف على باب مكتبي بعد عدة أيام من وصولي إلى البلدة: ورم الإبل في الخارج يريد مقابلتك.. طلبت منه أن يدخله على الفور، كان اسما شديد الخصوبة، ذكّرني بأسماء محاربين قدامى،

ومناضلين وطنيين، لكن الخفير الريفي بدا مستغربًا وتأملني كأنه يتأمل مختلًا.. قال:

- ورم الإبل لا يدخل سوى من الباب الرئيسي فقط.. ألا تعرفه؟

كان الخفير على حق؛ فحين خرجت من مكتبي تعثرت بواحد مسكين ثارت غدده الصماء ثورة عارمة، حتى لم تترك له مجالًا لمد يده بالتحية دون أن تلهث تلك اليد.. أخفيت دهشتي، وسألته عن مرضه، دون أن أضع في ذهني مرضًا معينًا.. فقال: لا شيء.. إنها قصة عادية أرويها لكل طبيب يأتي إلى هنا.. وقد سافرت بها، ورويتها لأطباء المدن كلهم، وأطباء العاصمة كلهم، جلست بها في عنابر بلا أبواب، ومحاضرات في الجامعة، وملأت صورتي أبحاثًا عديدة.. لا شيء.. لا شيء أبدًا.

ثم انصرف متخطيًّا المسافة بين مكتبي وباب المستشفى الرئيسي في ساعة كاملة..

ذلك اليوم ظل الرجل مقيِّلًا في ذاكرتي، وممسيًا فيها، وبات معها إلى الصباح التالي.. شدتني عيناه اللتان كانتا بلا وجود، ولسانه الذي ركض إلى حد اللهاث حين حدثني. أشفقت على قلبه من عملٍ مضاعف آلاف المرات، وعلى رئتيه من شهيق وزفير غالي الثمن. فكرت في «ريجيم» وفي علاج، ووجدت امتلائي الشخصي نحافة مروعة. بحثت عنه بالسؤال حتى وجدته على «برشه» المكتب في حوش المؤسَّسة الزراعية، لم أكن طبيبًا أبدًا.. كنت متعاطفًا أصيلًا.. يبحث عن وقود لتعاطفه..

منذ ذلك اليوم، أصبح «ورم الإبل» صديقي.. حدثني عن غذائه المكون من الماء والطماطم، والبصل في أفضل حالاته.. حدثني عن البلدة تاريخًا، وجغرافيا، عن القبور والبيوت، وقطن الدلتا، وحتى

عن المنفيين الذين بركوا في البلدة في أزمان بعيدة، وتركوا ذرية من بعدهم.. كان يغني غناء متقطعًا ثقيل الوطأة، يرطن، ويروي النكات، وينسخ لي القصائد بخط مبهج، وراقٍ لم أَرَ مثله أبدًا من قبل، وهو في ذات رقدته المكتبية، وحين أردت السفر واضعًا حدًّا لغرابتي في البلدة البعيدة.. قال ورم الإبل وهو يودعني: إذا وجدت علاجًا لحالتي.. أرسله فورًا..

ثم أضاف: إنه نفس الكلام الذي قلته لأطباء أتوا قبلك.. منذ عشرين عامًا. وسأقوله لأطباء يأتون بعدك.

المتمرد

كان «عبد الله جوكو» رقيبًا أول في كتيبة حراس الحدود اليابسين التي ترابط بالقرب من البلدة البعيدة.. راكدة في أزيائها، وأسلحتها، وتحايا ضباطها، وغازية للبلدة في أوقات العصاري والمغربيات، وأوائل الليل.. تعبث بالسوق، والأفراح، وعادات البلدة المتأصلة.. كان رقيبًا مميزًا عن بقية الرقباء.. من أبناء الغرب الذين سكنوا الشرق بحكم الوظائف، له سماتهم، ومشيتهم، وحديثهم الراطن إفريقيًّا.. وتُوعك أعصابهم في أوقات تُوعك الأعصاب، وكانت وظيفته النادرة في ذلك المكان، قد أضافت إلى شحمه شحمًا آخر، وإلى رطانته رطانة أخرى، وإلى زيه العسكري، رُتبًا خيالية جعلته لواء، وفريقًا من صُنع نفسه.

لم تكن تربطني بالمدجج أي رابطة مهمة، كان مريضًا في أحيان قليلة، وزائرًا في أحيان أقل، وعابرًا عاديًّا بالحياة اليومية لوجودي في البلدة، كنت استغرب من انتفاخه السلوكي، وحديثه عن الحرب التي لا تبدو آثارها عليه، ورفعه لتحية غاية في البرود واللا مبالاة لضباط وحدته وهم يعبرون أمام رتبته، واستنتجت أن المدجج لا بد مكلَّف بمهام أخرى.. لا تمتّ إلى حراسة الحدود بصلة.

كان مسرح التمرد بيتًا ريفيًّا من تلك البيوت التي تلم الأسرار دون أن تقوى على كتمانها.. استُدعِيتُ لرؤية مريض مهتاج.. اهتاج فجأة، وآذى الركود الريفي بدءًا من ركود عياله، وحتى ركود السلطة

المحليـة، كان موظفًـا عاديًّـا ثم ضاعـت أعصابه فجأة.. وجدت البلدة كلها هناك.. حدث غير عادي.. وفضول غير عادي، وألسنة تشخص، وتـداوي، وحبـال للربـط، وفتـاوى، وحتـى حراس الحدود اليابسـين، نفضـوا غبـار مواقعهـم وانتظمـوا في الحدث يعبثون بـه.. كان عبدالله جوكو هناك.. رقيبًا أول في غير موقعه، مكلفًا بحراسة غير محروسة، وراطنًا بسـفّة غزيرة من التنباك، ومفتيًّا في الطب النفسـي بثقة أوردت أسماء عديد من الحالات المشابهة وأسماء كثير من العقاقير.

أمره أحد قادته بالعودة إلى موقعه الخالي فأبى بشدة..

أمره القائد بأداء التحية العسكرية فأبى بشدة..

هـدده بعبـارات بـدت عنـد العسـكريين عبارات قـد تهلِك.. فما التفت إليها..

فجأة صاح واحدةً من الصيحات الكبيرة.. خفض من رتبة القائد حتـى جعلـه ولـدًا، وحمارًا، وناقـص عقل. وألصق بوجـوده الذي لم يتعد شـهرًا واحدًا، عديدًا من الإشـاعات التي كانت تتناقلها البلدة في عهود غابرة. كنت مندهشًا أشد الاندهاش.. وكنت أعرف أن الصرامة العسكرية لا تُخرق هكذا، وأمام مدنيين مساكين من أمثالي، وإلا لما قامت الحرب، ولما مات الجنود، ولا احتُلت الإذاعات في الفجر.

أخذوا المتمرد إلى الوحدة العسكرية مسورًا بالجنازير، كان يشتم حتى والحديد يعضّ جسده، وأيادي أخرى عسكرية خشنة تلتف حول لسانه.. وضعوه في الحبس الانفرادي لإرساله إلى المدينة حيث لا بد من عزله، وسجنه، وإيقاده عبرة لغيره.

في المحاكمة التي جرت في المدينة، كنت شاهدًا مهمًّا، لم أكن وحيـدًا؛ حيـث كانـت البلدة كلها ترى وتسـمع، لكـن موقعي كمفتش طبـي جعـل لتلك الشـهادة طعمًا مسئولًا.. يحتاج إليـه القائد المتمرد

علـى قيادتـه، وتحتـاج إليـه البلدة كلها للخلاص مـن عبد الله جوكو، أحد الذين بطشوا بالتقاليد لسنين طويلة.. حكيت باستفاضة.. ورسمت للقضاة الخشـنين مشـاهد التمرد بكل تفاصيلها.. وخرجت دون أنتظر النطق بالحكم، كنت متأكدًا أن جوكو لن يعود إلى البلدة أبدًا..

انغرست في السفر عائدًا إلى البلدة.. فكرت في مرضَى تركتهم، وأصدقـاء صادقتهـم وحوامل في الشـهور الأخيـرة.. هبطتُ في البلدة بعد سـاعات مضنية من عواء السـفر.. وكانت المفاجأة أن جوكو كان فـي اسـتقبالي.. كان مبتسـمًا، وضاحكًا، بنفس رتبتـه القديمة، ورطانة الشحم في سلوكه، وكان مسدسه المدلَّى من الخصر أكثر لفتًا للنظر.. تراجعـت خطوتيـن مذعورتين، لكن المتمـرد داهمني، احتضنني بقوة، وقبَّل رأسي، ودسَّ في جيبي قلمًا من ماركة «باركر»، وأحاط معصمي بساعة «سايكو».. قال: شكرًا.. شكرًا جزيلًا.. لقد كانت شهادتك في مكانهـا.. لقـد وضحـت قوتـي وصلابتي أمـام الجميع. وسـأنال ترقية قريبًا..

يا ساتر

لـم تكـن هـي المرة الأولـى التي أنغرس فيها وحيدًا في السـفر، فقد حدث ذلك مرارًا. كنا من ساكني الساحل، نرتبط بالعاصمة ارتباط الفـرع بالجـذع، وتجرجرنا مهامَّ قـد تكون ضئيلة للغاية، لكن لضآلتها شأن يضطرنا إلى ذلك السفر.

حين انحشرت في إحدى غرف الدرجة الأولى في قطار الثلاثاء المتجه إلى العاصمة، كنت أنحشر بين ثمانية أشخاص، كلهم مسافرون، ومرهقـون، ويحملـون فـي أعينهم بذرة ذلك التعارف الحتمي الذي لا بـد أن يحـدث فـي مثـل تلك البيئـة. كانت القطارات أنديـة للتعارف، يحبو الحديث شيئًا فشيئًا بين زملاء السفر حتى ينط إلى رقبة الأهل، والقبيلة، والوظيفة، وشئون أخرى أشد خصوصية، وكان من المألوف أن تعثر على قريب تراه لأول مرة، أو عدو يعاديك صدفة، أو شريكة مستقبلية للحياة، ابتسمت وسط ذلك الإرهاق.

حاصرني «سراج الدين» بأسئلته الخادشة والمباشرة حتى أصبح بعـد يـوم ونصـف مـن الحصار يلـم بتاريخـي، وجغرافيتـي، ومؤهلي الدراسـي، وحالتي الاجتماعية، ويخطط لي الطريق المسـتقر بإسـفلت من الكلام والثرثرة، وفي لحظة أريحية فياضة، زوجتني ثرثرته بواحدة مـن بناتـه العديـدات، قـال: لا نريـد مهرًا ولا أي شـيء.. فقط احضر بنفسك. ولن يحدث سوى الخير.

وكان لا بـد أن أشـكره فـي وقت كانـت عروض مثل عرضه، لا

تصادَف إلا في الشاشة و«السينما الغشَّاشة»، كما يقولون.. ابتسمت بتأنٍّ، ولا بد أنها كانت واحدة من ابتساماتي النادرة لأن العم سراج قام من شيخوخة محبطة بمرض السكر، تعثَّر في أذن لمسافر آخر تمددت في شيطنة، ثم انحنى على رأسي المهروس بالشعر وقبله.. منذ تلك اللحظة لم يخرِج من سلته طعام، ولا شراب ولا أسهمت قروشه العجوز في شراء البيض، والشاي، وكسرة المحطات المرة، وعندما فاجأه الكمساري واحتد معه لركوبه الدرجة الأولى بتذاكر الدرجة الرابعة.. لم يرتعد.. قال في ثبات وقوة:

- لا مؤاخذة.. حضرت للسلام على الدكتور وسأعود إلى عربتي. وبالمناسبة يا أخ.. أنا رجل أعمال اضطررت إلى السفر فجأة ولم أجد حجزًا سوى في الدرجة الرابعة.

وعندما فاجأه عدة مرات بعد ذلك في ذات جلسته الحصارية التي لم تفارق الغرفة أبدًا، كان ثباته أقوى، وكانت ردوده المستَمَدَّة من ذلك الثبات تجعل نظارة الشمس في وجه الكمساري ترتعد.

كان المسافرون الآخرون، قد ألغوا رغبات التعارف إلي، التي كانت تلتمع في ألسنتهم، وانشغلوا بمتابعة ذلك الحصار، أو قراءة صحف قرأوها ربما للمرة العاشرة.

اقتربنا من العاصمة. بدت كهارب متثائبة تبين وتختفي، وبدا طريق الإسفلت تحت قامة القطار يزدحم بالفوضى.. مال عليّ العم متسائلًا:

- إلى أين ستذهب في العاصمة؟

قلت: إلى منزل أحد أقاربي في أم درمان.

قال: لولا أنني حجزت غرفة واحدة في فندق «الهيلتون» لأخذتك معي لكنك تعرف أن هذه الفنادق يحتاج إلى حجز مبكر.

كان فندق «الهيلتون» الذي أشار إليه في ذلك الوقت فندقًا عريسًا لم يتزوج بضفة النيل عند «المقرن» سوى منذ عدة أشهر فقط، وكان ساكنو غرفه صفوة لم يخطر ببالي أن العم منهم.. ومع ذلك لم أندهش، شكرته بابتسامة أخرى كانت أندر من الأولى.. وكان موعدنا في الساحل بعد عدة أيام لنتخذ خطوة أكثر تقدمًا في مشروع تزويجي.

كان ليل العاصمة مُرًّا، يقتسمه الظلام والمطر، كان العثور على سيارة للأجرة أمرًا مستحيلًا، فقد نامت كما يبدو شهوة الرزق، وبدأت حناجر العربات القليلة الموجودة في محطة القطار تتقرصن على الجيوب، تجولت في شارع «القصر» أملًا في العثور على فندق مسكين أنفق فيه ليلتي، وكانت لوكاندة «يا ساتر» التي عثرت عليها في النهاية، بجوار المستشفى العاصمي، فقيرة، لكنها تفي بالغرض، كانت أجرة المبيت خمسين قرشًا على سطح غارق في المطر.. قلت في نفسي «بلدًا مو بلدك».. ودخلتها مطمئنًا بأن أحدًا لن يعرفني.. وكنت على خطأ، فقد عثرت على العم «سراج الدين»، رجل الأعمال، والنسيب، ونزيل الهيلتون الفخم.. ممددًا على السطح الغارق.. نائمًا ومطمئنًا، ولا يخطر على باله أن طبيبًا في مكانتي يمكن أن يوجد في ذلك المكان.

العالمي

كان «الماحي» مدرِّسًا للغة العربية، من أولئك الكلاسيكيين الذين يلهثون بالفاعل والمفعول، وأحرف النصب والجر، كما تلهث بها الكتب دون إبداع شخصي، وكانت شهرته في المدينة لا تتعدى شهرة البسطاء الذين يعرقون شهرًا كاملًا، وينفقون حصاد عرقهم الشهري في عدة أيام فقط. لم أكن أعرف الماحي شخصيًّا، ولا كنت من زملائه أو تلاميذه، ولا اشتركنا في السكن في حي واحد، لكن مباريات ساخنة في الدوري المحلي آنذاك، كانت تؤاخي بين تشجيعه وتشجيعي، فنصفق ونتوتر، ونكسب وننهزم، وربما التقت أعيننا وصيحاتنا لكنه لقاء خادش لم يتعد ذلك.

تلك الأيام منفعلًا بالشِّعر، تسكنني قصائد مهتاجة في كل أنواعه، وكان من جراء ذلك الانفعال أن صحفًا محلية استضافتني، فتحدثت عن تجربتي الكتابية دون أن أملك تجربة، وظهر وجهي «الطلابي» أكثر من مرة في برنامج تليفزيوني عن نداء السودان، كان يستجلب الضحك أكثر مما يستجلب الدمع، كنت أمشي في المدينة فتتبعني التحيات، أدخل السينما فتدخل معي أصوات محيية، وأسافر فأعثر في متعة السفر على ساذج يسمعني قصائدي المهتاجة وهو يبكي تأثرًا.. فأشاركه البكاء. وفي وسط ذلك الوضع المرهق الذي انحشرت فيه من دون معنى، كان لا بد أن يعثر عليّ مدرس من طراز الماحي، ويحوّل إحدى سفراتي القصيرة، وقليلة التكلفة إلى سفرة مهلكة.

كنا متكدسين في قطار الثلاثاء، ذات القطار الذي عمَّدني فيه العم «سراج» زوجًا لابنته، كان الصيف رابضًا على الطقس، والسفر يدفع إلى الحلوق نرفزة، وشتما، ونداءات، وضحكًا، وتعارفا، وكانت الدرجة الثالثة التي انحشرت فيها بحقيبتي «الهاند باق» فائضة وعرقانة، وتجر غثيانًا طاحنًا من أقصى أقاصي الأحشاء، ليلة وتمر.. هكذا تعلَّمنا المشاقّ. فجأة أحسست بيد تُوضع على كتفي، وأحاط بي صوت واسع شملني، وشمل العربة كلها..

شاعر عالمي في الدرجة الثالثة؟ حقًّا تموت الأُسْد في الغابات جوعًا..!

بالطبع لم أكن «رامبو»، ولا «لوركا»، ولا «صلاح أحمد» على أقل تقدير، لأظن أنني المقصود بتلك العالمية، لكن اليد التي عضت على كتفي، وأنهضتني من جلستي المنكمشة، أكدت لي ذلك القصد، في تلك اللحظة، سخطت على نداء السودان، والصحف المحلية، وأقسمت على هجر الشِّعر غير آسف، كانت الدرجة الثالثة قد تحولت إلى عين ثاقبة تمصّ عالميتي، وتحرك عدد من المسافرين من مقاعدهم الخشبية، في مغامرة نادرة قد تفقدهم تلك المقاعد، وجدت يدي اليمنى، محتضَنة، ومصافحَة من ثلاثمئة مسافر، وتهيجت قصائدي بأصوات شتى سمعتها تتناثر في ذلك السفر.. قال المدرس: هيا إلى غرفتي في الدرجة الأولى.. ودعم فراري بصياح غريب كان يصف فيه معجبيَّ العديدين، بالسوقة والغوغاء، وعديمي الاحترام.

مررنا على غرفة «البوفيه» بإيعاز شرس من مرافقي. كانت روائح الشواء تعطر المكان، وتجر أحماض الهضم جرًّا، وكان مسافرو الدرجة الأولى، وغرف النوم أنيقين، وملتزمين بلوائح «الإتيكيت» يضعون فوطًا على صدورهم، ويأكلون بالشوكة والسكين، في متعة

غريبة، جلسنا على إحدى الموائد، أغرقها المدرس بالسمك، واللحم، والسلطة الخضراء، وعصير «الليمونادة»، انغرسنا في الأكل بنفس متعة المسافرين الآخرين، وعندما فرغنا، وجدت فاتورة بطول شاحنة تتدحرج من أمام المدرس لتستقر أمام بصري الملتاع، كان يخاطب الجرسون بذات صوته الكارثة: ضعها أمام أستاذنا الكبير.

فقام أستاذه الممغوص بدفعها وهو يلهث.

كانت الغرفة التي أخذني إليها في الدرجة الأولى نظيفة ومرتبة، وتوحي بذلك المجد الذي كانت السكك الحديدية مزهوة به، استرخيت فيها وأنا أعدّ ما تبقى من نقود لأكمل به سفرتي القصيرة، أخرج المدرس كراسة ضخمة، قال إنها تحوي قصيدة كتبها عن «نكبة فلسطين»، واستغرقت قراءة تلك القصيدة التي لا تنتمي إلى الشعر، ساعتين كاملتين، ولم تنته فقد قطعها طَرْق عنيف على الباب، وصوت خشن يقول: مفتش القطار لو سمحتم.

فتحنا للمفتش الذي كان ممتلئًا، ومكشرًا، ويتبعه جيش من المخالفين بحراسة عسكري نحيل.. تساءل عن حجزنا وتذاكرنا وبطاقاتنا الشخصية، وفوجئت بالمدرس يقول في صوت ثابت:

- أنا في ضيافة أستاذنا الكبير.. وهو مستعد لدفع الغرامة.

حين وصلت إلى العاصمة، كنت فارغًا إلا من حقيبتي اليدوية، كان المدرس قد تلاشى، وكنت أتلفَّت في فزع باحثًا عن وجه أعرفه لأستدين عشرة قروش تغرسني في باص مزدحم أذهب به إلى أهلي.

ترينتي وعضلاته الفالصو

كانت الواحدة صباحًا عندما فككنا الأحزمة، وتهيأنا للنزول في مطار العاصمة.

كنت قادمًا من بلدتي الساحلية، ذلك القدوم الذي يتكرر من حين لآخر، لقضاء مهمة ما، أو التنفض من إقليمية العيش والتنزه في العاصمة من سينما «كوليزيوم» إلى حدائق المقرن، وشارع النيل.. وربما جرني جوع مسائي لتناول طبقٍ من الفول عند «أبي العباس» العريق. كان الجو خريفيًّا ناعمًا.. فراشات من مطر بلوري تلامس الوجه والجسد ثم تفر، وهواء عطوف يهدهدك حتى تنام واقفًا.. كانت الواحدة صباحًا.. ساعة مضت على بدء حظر التجول الذي كان سائدًا في تلك الأيام.. ألقيت نظرة على مبنى المطار الشبعان بأنفاس القادمين والذاهبين والعاملين والموجودين بلا سبب، كان من المستحيل قضاء ساعة واحدة، كان أنين البطن في حاجة إلى إسكات، وأنين الرأس في حاجة إلى «بندول»، وانفتاح الفم وانغلاقه في حاجة إلى قمع نومي، ورغم أنني لم أكن من هواة التنقل في تجول محظور، وعندما كنت أعمل مساعدًا لـ«توم حامد» وتحت رحمة الاستدعاء اليومي في قسم النساء والتوليد في المستشفى الساحلي، كنت أضطر إلى المبيت كثيرًا في المستشفى، وأنا أراقب نزيفًا مراوغًا أو ولادة تتعسر، أو مولودًا شقيًّا يخرج إلينا تاركًا «مشيمته» خلفه. وذلك حتى لا أعود من بيتي محظورًا في تجول محظور، أقف ثلاثين مرة، مرددًا

نفس عبارات الخطر المتعجلة، لثلاثين مراقبًا عسكريًّا كانوا يعرفونني تمام المعرفة، وقد أزلت لبعضهم زوائد دودية، أو رتقت مصارين مجروحة، أو بشّرتهم بمواليد كانوا ينتظرونهم بفارغ الصبر... وأخيرًا قررت الذهاب.

على باب المطار كانت عربات التاكسي أغزر كثيرًا من متاع المسافرين، في كل مكان زرته لم أجد مهنة أشد إيذاءً وإيلامًا للشعور من مهنة «تاكسي المطار».. كان المسافر في نظر تلك المهنة خارجًا على القانون، تصادَر أملاكه وهداياه، وتبغه، و«تنباكه»، وأشواقه إلى ذويه، وقد تمتد حتى إلى جيوبه السرية لتبدل عملاته الصعبة في سوق أشد قسوة من السوق الرسمية. كنت أهيئ نظري لالتقاط سيارة حسناء من نوع «الكرسيدا» أو «الكراون» أو المازدا «929»، وذلك حتى أصادَر من قبل سائقها عن طيب خاطر، لكن تلك الفرصة لم تأت أبدًا، فقد وجدت جسدي وحقائبي ونظرتي المهيأة، كلنا محشورين في سيارة «هنتر» متهدمة.. وانتبهت إلى السائق.. كان عريضًا جدًّا، ربما أعرض سائق للتاكسي أصادفه في حياتي، لدرجة أن مقعده من شدة ضغطه على المقعد الخلفي، ألغي وجوده تمامًا...

- ألم تسمع بأحمد ترينتي؟

خاطبني السائق وضغط على كتفي الأيسر حتى ولولت عضلاته..

- أنا أفضل من يقودك في حظر التجول وفي غير حظر التجول، كل نقاط التفتيش تعرفني ويرتجف العساكر عند رؤية سيارتي. حتى «الرباطين» في خور «أبوعنجة» يفرون حين يشمون رائحتي.. سترى الآن بنفسك.

قلت وقد شعرت بالقلق: ألا تحمل تصريحًا؟

كشّر في وجهي بعنف...

- لا أحد يسأل ترنتي عن تصريح.. مَن المجنون الذي يفعل ذلك؟ كلهم يخافون على أنوفهم وأسنانهم.. ولكن مع ذلك فمعي تصريح كنوع من الروتين لا أقل ولا أكثر. ثم أشار إلى طبق من «الطلس» على يمينه، وضعت بداخله ورقة التصريح.

مررنا بعشر نقاط تفتيشية، كان السائق العريض يتوقف كأي سائق، يمد يده اليمنى، يلتقط التصريح، يريه لفوهة السلاح المصوب، ثم يعيده إلى مكانه، وعندما ننصرف، يلتفت إليّ بغطرسة، يقول: هل انتبهت؟ هل رأيت كيف كان الرجل يرتجف؟

وأبحث في ذهني عن خوف أو رجفة أو اصطكاك أسنان صدر من خلف البنادق المشرعة، فلا أرى.

في النقطة الحادية عشرة كنت قد ابتللت بصلفه حتى القدمين، وقررت أن أضع حدًّا. مددت يدي إلى وعائه الطلس، أخذت تصريحه الداعم للصلف، ووضعته في جيبي وعندما توقف وبحث ولم يجد.. كان أحمد ترنتي السائق العريض جدًّا، الممتلئ عضلاتٍ وصلفًا والذي أخاف قطّاع الطرق في خور «أبوعنجة»، مجرد خارق عادي للقانون، عرقان، ولاهثًا، وزاحفًا على يديه وركبتيه، يبحث عن كلمة يرد بها على «هرشة» السلاح.. وعن تصريحه الذي كان مجرد روتين لا أقل ولا أكثر!

فلسطين والجيرة

كان «فلسطين» اسمًا غريبًا، ورجلًا غريبًا، ويكاد يكون الرجل الوحيد في المدينة وربما في الوطن كله الذي حمل تعاطفًا لتلك الدولة المقهورة، ظل لاصقًا على شهادة ميلاده لا يغيره أي تفاوض أو تنازل، أو زخم انتفاضي. وطوال جيرته معنا التي امتدت طوال ثلاثين عامًا، كان ذلك الاسم يشكل إرهاقًا دائمًا للإمساك بمغزاه، ولم نمسك به، واكتشفنا أن آباء لنا سبقونا في ذلك الإرهاق، ولم يمسكوا به أيضًا، وظل «فلسطين» جارًا مفعمًا بالجيرة، تخالطه المناسبات بحلوها ومُرِّها وهي حائرة. يكشِّر «عرفات» وصحبه، ويبتسمون، وهو ممسك بذلك التعاطف.

كان قبطيًّا من سلالة الأقباط الذين استوردتهم مهارتهم وكفاءة عقولهم من صعيد مصر في أزمنة بعيدة ربما في عهد الحكم الثنائي، لا أدري بالتحديد، فعملوا محاسبين وجباة للضرائب، وتجارًا شديدي النشاط لا تقهر نشاطهم ملاريا، ولا تفتك به نزلة معوية، كانوا يمسكون بتجارة القماش، فتبدو الأجساد المحلية مكسوة من تجارتهم بالكامل، ويمسكون بالبقالة و«السوبر ماركت»، فلا ينجو أحد من «طحينتهم»، و«جبنتهم المضفَّرة»، ومعلباتهم التي تدهش التذوق. وظهرت لهم في ما بعد أجيال شديدة اللسعة أمسكت بالدواء والصيدليات وعيادات الأسنان، وصعدت إلى القمة على انحناء «البوليتاريا» ولبست الثوب والعمامة، وتعلمت أن تحلف بالطلاق، وتسف السعوط، وترطن حتى

برطانات القبائل إذا اقتضت الظروف ذلك. وقد كان «فلسطين» من هؤلاء، لم يصعد كثيرًا لكن «قبطيته» كانت تبدو باهتة، وعديمة التناسق إذا ما قورنت بتلك «القبطية» الكلاسيكية التي كان يرتديها كثير من أبناء جِلدته، وأنداده، ويعيشون بها في المدينة، وأذكر أنه أقام في أحد الأيام عرسًا لإحدى بناته، التهم الليل بنفس الأسنان التي تلتهمه بها أعراسنا، وبدا للعابرين الذين أرخو آذانهم عرسًا وطنيًّا أصيلًا، وصُعقنا نحن سكان الحي حين استمعنا إلى أغاني البنات و«الجرتق» و«السيرة» الموغلة في المحلية تُردَّد بألسنة بيضاء، كان أبرزها لسان العم فلسطين.

كانت تجمعني بفلسطين جيرة لاصقة عَرَفَني فيها طفلًا وتابع تسلسلي إلى أن «تطبَّبت» وأصبحت لي في الحي لغة أخرى، لغة بنسلينية، ومحلولية، وكلوركوينية، أتحدث بها في مواجهة الملاريا، والحمى، والنزيف، فسعى إلى مصاحبتي معتمدًا على شخصيته الروائية التي كانت تشد جانب الكتابة فيّ، ولسانه المثرثر والتحريضي الذي كان يحولني في دقائق من مجرد طبيب متدرب في سنة «الامتياز» تشاكسه الأمراض، وتفر العقاقير من ذاكرته المجهدة، إلى ممتلئ كبير بامتلاء «مستر نابري»، و«بشير أرباب».. كنت أسعد بذلك الامتلاء الزائف، استجيب لإزعاجه الصباحي المبكر، والليلي المتأخر، والباتر لنوم الظهيرة، وربما الذي ينتزعني أحيانًا من لقمة الغداء، وطوال خمس سنوات من سكناي كطبيب في الحي، أزعجني فيها الجار والبعيد، كان للعم فلسطين نصيب الأسد في ذلك الزخم الإزعاجي.

الآن عقدت العزم على السفر.. فرصة جاءتني راكضة وأردت أن أعانقها، كان استعدادي متواضعًا، ذلك الاستعداد النفسي الذي تلتهمه الأحلام أكثر مما تلتهمه الحقائب، وقد صور لي ذلك الامتلاء الزائف

الذي كان يملؤني به العم «فلسطين»، أن مزعجي الحي ومرضاه الذين استجبت لهم طوال تلك المدة وقاتلت عللهم وأمراضهم، سيسدون الطريق نحو منافذ السفر، وربما يبكي بعضهم تأثرًا.. وتخيلت دموع العم فلسطين وهي تغرق التذكرة والمشاعر.. وتستحلفني أن أظل مزعوجًا أبديًّا.. وحين انتظمت في سلك المغادرين وتلفتُّ.. لم أجد أحدًا.. لا فلسطين، ولا أي بلدة أخرى.

فقر ومرحوم

كان «مرحوم» ترزيًّا مغمورًا للأناقة الإفرنجية.. لم يكن في شهرة «مأمون» ولا «الطيب موسى» ولا فهمي اليوناني الذين أمسكوا بأناقة الساحل زمنًا، ووقعوا بمقصاتهم على بدل السفاري، وقمصان «التترون» و«الشيفون»، وبأسمائهم على أغنيات البنات الراقصة التي كان تمجدهم في الأعراس. كان محله في أحد أطراف السوق الكبير، ممزقًا بين محلات البقالة والأقمشة الرخيصة.. ودكاكين بيع الأسمنت والمسامير، وكان متأنقوه شديدي الفقر، يزحمونه في الأعياد والمناسبات ويفرون في بقية أيام السنة.. لم أكن من زبائن مرحوم أبدًا، ولا رافقت تصاميمُه نمويَ المتأنق في المدينة الساحلية. وكان وجهه الذي يشبه وجوه أبناء صعيد مصر شديد العصبية والنرفزة لدرجة أنه أقصى كثيرًا من الزبائن عن محله الفقير. كنت أستغرب من ذلك الوجه، ومن الاسم أيضًا.. أحيلُ مرحوم إلى عدد من القبائل المعروفة بتعقيد الوجوه والأسماء، ولا أعثر على قبيلته بينها.

تلك الأيام كنت بحاجة إلى دخل إضافي، وكانت العيادات التي ينشئها أمثالنا في أطراف المدينة شديدة الإعياء، لا ترقِدنا على رغد العيش أبدًا، لكنها تبقينا واقفين على أقدامنا، نأكل، ونشرب، وربما نبتعد عن سكك المواصلات العامة بعربة نصف عمر.

بحثت عن موضع لاسمي، وشهادتي المتواضعة، ومولّدي الكهربائي الذي اشتريته من أحد العاملين بالخارج، وانتهى بي البحث

إلى حي هامشي لم تدخله لافتة طبية من قبل.. وكان الطريق إليه وعرًا يأكل من لحم العربات بلا انقطاع. كان بيتًا من الخشب المسكين شُيِّد على عجل، كانت غرفتاه ضيقتين وصالته التي يُفترض أن تؤدي مهام «الرسيبشن» مملوءة بالرمل والحصى وكثير من قواقع البحر. وكان صاحبه يحمل وجهًا كوجوه أبناء صعيد مصر.. إنه مرحوم الترزي.. مشيِّد الأناقة المغمور، في طرف السوق الكبير.

باشرت عملي في العيادة «المرحومية» كأقسى ما تكون المباشرة.. كان المرضى يأتون وِحْدَانًا، وعلى حياء، يتبعهم جيش من الأقارب والنسوة القلقات، نزودهم بالفحص والدواء، والابتسامة وخلاصات التطمين التي شربناها من أساتذتنا الكبار، ونخرج في آخر الشهر.. لا لنا ولا علينا.. وكان الترزي قد ناصب عيادتي العداء منذ الأيام الأولى كأنني استأجرت خلية من جسده.. كنت أراه في عيادتي كثيرًا.. يحدق في المرضى والمرض، والوصفات والممرضة التي كانت أرملة في أواخر الخمسين.. أسأله فينفلت خارجًا، واكتشفت أن له دفترًا خاصًا يشبه دفاتر تجار الريف، كان يسجل به كل قدم تدخل إلى البيت حتى لو كانت قدمًا لمتسول.. كان أشبه بمحصلي الضرائب الذين عرفتهم أيضًا، لكنه كان أشد قسوة، ونباهة، وإصرارًا على المكر.

في أحد الأيام فاجأني الترزي مفاجأة غير سارة.. قال:

- من أول الشهر سنرفع الإيجار إلى ثلاثة أضعاف.

كانت تلك الأضعاف الثلاثة التي ذكرها، تعني عملًا مجانيًا.. وربما استدانات عدة حتى نوفّي بها.. وضَّحت له الأمر، فأخرج دفتره الماكر وقرأ منه سبعمئة اسم زارتنا في ثلاثة أشهر، وكانت ترافق عشرة أشخاص فقط.. وضّحت له الأمر أكثر.. فاغتاظ وجهه وخرج..

منذ تلك اللحظة بدأت الحرب «المرحومية» ضد عيادتي

الفقيرة.. كنت أجد مولّدي الكهربائي بلا أسلاك.. ولافتتي النيون بلا نيـون، وطاولـة الكشـف التـي دعمتها بخشـب قوي، وقـد بركت على ركبتيهـا، وفـي أحد الأيام وجدتهم يسـتبدلون اسـم أبي المنحوت في اللافتة، باسـم آخر، لا يمتّ إلى البشـر بصلة.. وكان لا بد أن أخلي ذلك المسرح الفوضوي، فأخليته. وقلت للترزي موزع الفوضى:

- لا عجب إن كانت تصاميمك كلها عرجاء.

تلك الأيام كنت أعمل في قسـم الجراحة بالمستشـفى الساحلي، إنـه قسـم يلائـم طباعـي. لا شـكوى غزيرة، ولا ثرثرة بـلا معنى، ولا عقاقيـر تـراق فـي الجسـد فـي انتظـار مفعـول قـد لا يجيء أبـدًا، كنا نفتح، ونرتق، ونزيل، ونخرج المريض من عندنا شديد الرضا، وغزير الدعاء.. وربما جاد أهله بإفطار دسم لكل الذين شاركوا في إرضائه.. اسـتدعوني في أحد الأيام لإسـعاف مريض يبدو من وصف آلامه أنه حالـة «فتـاق مختنـق».. فحضرت على الفـور.. وكان الترزي صاحب الأناقـة المغمـورة فـي طرف السـوق الكبير، والحـرب المرحومية في الحي الهامشي البعيد.

أزلـت اختنـاق فتاقـه بـلا عـداء، واختصصتـه بعنايـة كان منبعها الواجـب لا أي شـيء آخـر، وعندمـا وقف واسـتند إلـى عافيته، رأيت وجهـه مختلفًـا.. وجسـده مختلفًا.. ولسـانه الذي وصل فـي تقيُّئه إلى جذور قبيلتي الشايقية، يخرج رطبًا ليهديني عيادتي السابقة، بلا مقابل..

ابتسمت.. فلم أكن بحاجة إليها.

وجع قبلي

كان إسماعيل من أبناء قبيلة محلية، إحدى القبائل التي نبعت في الشرق، في الجزء الحدودي الفاصل بين الوطن و«إريتريا» ورطنت في الساحل مبكرًا.. سعيًا وراء رائحة الميناء الذي وُلد منذ عهد بعيد وبدأ يصرخ شادًّا إلى صراخه كثيرًا من الرطانات. كانت قبيلة وارفة وكثيرة الظلال.. بها جذوع وفروع، وعُمد ونُظَّار ومشايخ.. وعلى الرغم من أنها انخرطت في تمدن المدينة مؤخرًا فإن وجودها في الساحل كان وجودًا بارزًا ومؤثرًا إلى حد ما.

كان إسماعيل نحيفًا وضئيل الشاربين ويملك واحدًا من أكثر الأصوات إزعاجًا لأي أُذن.. كان صوتًا حادًّا ومثرثرًا وكثير الأخطاء، وكان تردده على عيادتي الفقيرة في الحي الهامشي البعيد جزءًا من شَرَك غزير الشباك، أعده بإتقان وبدأ يجني ثمار ذلك الإعداد.

حين رأيت القبلي لأول مرة أرعبتني أناقته بشدة. كان مزوَّرًا وغير مألوف، ويرتدي ثيابًا شديدة القرب من ثياب المغتربين التي كانت وما زالت قدوة لجميع الثياب بلا حصر. كانت عمامته من «توتل مموج»، وجلبابه يزهو بغسيل النشا، والخاتم الفضي الذي يضعه على إصبعه، يضارع الخواتم الفنية لمغنين نجوم، مثل ترباس، وعوض الكريم عبد الله، وغيرهما من المغنيين المترفين في خواتمهم وأصواتهم.. كان يجر سبعة عشر مريضا من قبيلته، قال إنهم مرضى مساكين.. يتكفل بعلاجهم.. وكان تكفله في ذلك اليوم مرضيًّا لدرجة أن ممرضي «عز

الدين» الذي كان قرويًا من أبناء قبيلة «الدناقلة» وتمدن منذ عهد، عاد إلى رطانته من كثرة الابتهاج.

بعد ذلك بدأ القبلي يأتي بكثرة.. كان يأتي مريضًا، وزائرًا، ومرافقًا.. وتدرَّج في المجيء حتى أصبح مألوفًا للطبيب أكثر من طبه.. يعفَى من أجرة الكشف.. يقتحم ساعتي العيادة، يثرثر.. وينصح، ويفتح الحوارات ويغلقها.. ويصنع شايًا وقهوة، وربما جلس على طاولة الممرض وبدأ يتلقى النقود، ويوزع الأرقام. كنت في البداية محتارًا من ذلك المقتحِم.. أحلته إلى عدد من الجهات دَرَجَتْ على مثل ذلك السلوك ولم أعثر على شيء.. فلم أكن ثريًا حتى تتعقبني إدارة الضرائب، ولا سياسيًا حتى يخنق الأمن أنفاسي بإسماعيل، وكان وجهي الذي اعتززت بجديته لسنوات طويلة قد بدأ يستجيب لضغط المقتحِم، كان يبتسم ويضحك، وربما ثرثر في أحيان كثيرة.

في أحد الأيام جاء إسماعيل زائرًا سريعًا.. كان مكتملًا في تلك الأناقة المرعبة.. مكث لأقل من عشر دقائق ابتدأ فيها حوارًا ولم يكمله.. وخرج، وعندما غادرت عيادتي وجدت سيارتي لامعة مزدانة بالورود وتفوح من مخملها القديم رائحة الصندل. ظننتها تحية متهيجة من أحد مرضاي ممن زودتهم بخامات الشفاء واستجابوا.. لكنني اكتشفت أنها استُخدمت في ذلك اليوم في نقل عروسين تم زفافهما في ذلك الحي البعيد. وكان مستخدمها ذلك الصديق القبلي. وفي يوم آخر زارني عدة رجال من قبيلته، كانوا يسألون عن نقود مغتربة جاءتهم من بعيد وانتهت أمانة في عيادتي الفقيرة. وكانت أكثر تلك الزيارات إيقافًا لشعر الرأس تلك التي جاءت من حدود «إريتريا» إنها زيارة مكلفة.. كلفت العمدة إدريس، وابنته وحاشيته كثيرًا من المال والتعب.. كانوا ذاهبين لأداء العمرة، وقد أعدت لهم الحيل

«الإسماعيلية» ضيافة فذة في بيت صديقه الطبيب وسفرًا مدفوع الأجر من خزانته عبر بواخر البحر.. وحتى توصية ومستقبلين، ومودعين..

كان القبلـي مختفيًّا فـي كل تلك المآزق.. لم يأت في أي مأزق منهـا، كنـا نبـذل جهدًا جبـارًا للخروج، وعندما نخـرج ندخل مجددًا، وحتى عندما أردت أن أضع حدًّا لكل ذلك وطالبت بالحماية لم يُعثر علـى القبلـي أبـدًا.. بحثوا عنه في كل مدن السـاحل وقراه.. ولم يكن موجودًا.. وظلت حيله الغامضة تأتي وتذهب.

الدم الأمني

لـم أكـن أبـدًا من عشـاق السياسـة الحادة، التي تنبـش في معالم مرصوفة سـلفًا، وتخدشـها. لم أعشـها شـاعرًا، ولا كاتبًا، ولا مواطنًا عاديًـا.. كأولئـك العادييـن الذين يثرثـرون بها في دواخلهم كلما ضاق الحال. ولعل ابتعادي عن صفحات الرأي التي تبجلها الصحف وتبعدها عـن أي شـخبطة إعلانيـة، ونزوحـي إلـى صفحات الثقافـة التي يغيِّبها المـوت مـن حين لآخر، أو تأكل «الكريمات» وخلاصات «الشـامبو»، وسياحة السفر والفنادق من لحمها.. يعد دليلًا على ذلك. منذ كتبت ومـا زلـت.. بي شـغف إلى الناس، يمدونني بخاماتهم، وأسـتمد تلك الخامـات لأبنـي أو ألـوّن، أو أصـوغ وجعًا موازيًا.. سـيرة الوجع هي سيرة حقيقية، ولعلها لا تهمّ أحدًا.. أو لعلها تهمّ البعض.. لكنها كانت وما زالت طريقي إلى قارئ متعجل لا يبحث عن «نار للزغاريد»، أو سماء لها لون الياقوت. أو ينظر إلى وجهه في تلك «المرايا الساحية».

كنت أعمل بقسـم التوليد في أحد المستشـفيات السـاحلية.. إنه المستشـفى الـذي عرّفنـي بالطبيـب العظيم توم حامـد وعالَمه المبهر. لـم يكـن تـوم حامـد اختصاصيًّـا فـي أمراض النسـاء فقـط، لكنه كان اختصاصيًّـا فـي الدين والدنيا، والشـعر، والتاريخ، والعلوم، والسـيطرة علـى مـذاق المجالس والدردشـة، واحتواء الفقراء.. وكل شـيء. كان هرمًـا لا يوجـد في «سبـقارة»، وبرجًا لم يَمِـلْ كَمَيَلان «بيزا»، ونيلًا لم ينبع من «فكتوريا».

كنا في ذلك اليوم بصدد إزالة رحم متليف لإحدى المريضات.. كنا نبحث عن دم بديل كجزء من الاحتياطات الكثيرة التي نتبعها في مثل تلك الورطات.. ولم يَطُل بحثنا كثيرًا لأن ثلاثة بوجوه صلبة، وشوارب معقدة قالوا إنهم من أهل المريضة، جاءوا و عرضوا دماءهم بسخاء، ولم نردّ سخاءهم، أخذناه كله، واحتفظنا به، ودخلنا إلى الورطة بلا توتر.

كانت واحدة من عمليات توم الفذّة، تولاها بخبرته.. وأدواته، وقصائده الساخرة، وذكرياته عن أيام «توريت».. وموسكو.. وحجر الطير.. وخرج الرحم المريض في يده مستسلمًا من دون أن يذرف دمعة من دم.. وبقي ذلك السخاء الدموي الذي أخذناه راكدًا لم يسهم بشيء. كانت المريضة قد استيقظت، وابتسمت، وتحدثت، وتمشت، وبدأت في احتساء أقداح الحساء، حين جاءني الثلاثة، كانوا بوجوه أكثر صلابة، وشوارب أكثر تعقيدًا.. نادوني إلى أحد الأركان البعيدة في القسم، وأخرجوا بطاقاتهم.. قالوا بصوت واحد لا بد أنه تدرب لسنوات حتى يبدو في تلك النغمة:

- نحن من جهاز الأمن.

ظننتهم أخطأوا في إحدى مهماتهم المعقدة، وتشابه عليهم البقر في مستشفى تمارَس فيه السياسة جنبًا إلى جنب مع الطب.. قلت بصوت جاهدت أن لا يخرج مكسوًّا بتوتري الداخلي:

- أنا الطبيب الذي عالج مريضتكم.. وساعد في إزالة رحمها.. رأيتموني عشرات المرات.. وتحدثتم إليّ؟

- نعرف ذلك.

- ما الأمر إذن؟

وفي واحدة من أغرب فاعليات التبرع بالدم، لم تحدث في

قسمنا من قبل أمسك أحد الأمنيين بيدي، واقترب آخر بيده من جيبه، بينما مط الثالث حنجرته حتى دخلت إلى أذني.. قال: لم تعطوا دمنا للمريضة، لقد دلت تحرياتنا على ذلك.. لذلك يجب إعادته إلى عروقنا، والآن فورًا.. حاولت أن أضحك فلم أستطع، وأن أوضح لهم أن دمهم لا بد سيسري في عروق أخرى قد تحتاج إليه ويصبح بذلك صدقة منهم.. فلم أستطع أيضًا.. وفي اللحظة التي التصق فيها ظهري بسلاح صلب خرج من جيب أحدهم.. ورعونته، ظهر الطبيب العظيم توم حامد.. كانت المعضلة بالنسبة إلى خبرته لا معضلة على الإطلاق، أخذهم إلى قسم التبرع بالدم بسهولة، وكان يمازحهم ويسرد على مسامعهم قصة إحدى خالاته التي أخذوا منها دمًا، وأعادوه إليها فصغرت عشرين عامًا..

في اليوم التالي كان الأمنيون الثلاثة بلا وجوه، يرقدون في أحد عنابر الباطنية مصابين بملاريا منهكة.

العم تاج

كان العم تاج هو المدير الطبي للمستشفى الساحلي.. واحد من أبناء مدينة «بربر» الشمالية الذين انغرسوا في الساحل صبية، واكتسبت عائلاتهم ذلك الصيت التجاري الذي كان مُتقنًا وفسيحًا وذا أياد متصدقة. رجل فيه ملاحة، ووسامة، وإسراف في البشاشة، درس الطب في أوروبا، وعاد بلا أوروبية، على العكس من كثير من أنداده الذين صاهروا الغرب طلابًا، وعادوا بشهاداتهم ومصاهراتهم أو لم يعودوا على الإطلاق.

كان العم تاج من أبناء حيِّنا، عرفناه صغارًا، نشكو من الحمّى ووجع الأضراس، وسيلان الأنوف والآذان.. وعرفناه صبية شياطين نتسلق غبار عربته، وعلو أكتافه، وكثيرًا من بشاشة العم التي تهتاج في شفتيه.. لم يلقبه أحد بالعم أبدًا، لكن كلاسيكية الطبع لقبته، وحتى حين كان يعمل في قسمه المختص بالأسنان في هدوء، ويبزغ من حين لآخر في استراحة الأطباء، ليتجرع شايه واقفًا، أو يداعب واحدًا من الوجوه المرهقة كان يبدو عمًّا حقيقيًّا. وحين اختير لإدارة المستشفى الساحلي ونحن أطباء فيه قلنا بلا اتفاق: مرحبًا بالعم مديرًا لنا.

كانت إدارته للمستشفى غريبة للغاية.. إنها إدارة بلا فخامة، ولا مكتب وثير، ولا اجتماعات تقوم وتقع.. كان مكتبه في أي ركن، وفي أي عنبر، وتحت ظلال الأشجار.. وربما داخل عربته «المازدا» الفقيرة التي واكبت تدرجه منذ جاء.. يفاجئ المناوبين الليليين مفاجأة

صديق، ويرحل دون أن يشبعوا من مفاجآته.. يجيء مبكرًا، ويرحل ببطء، يدخن سيجارة واحدة في الشهر، يرتدي «الجينز» والقمصان المخططة، وحذاء من ماركة «أديداس» وفي كثير من الأحيان كان بياض رأسه يتلاشى أمام حلكة مفاجئة من صبغة «البيجون»، ورغم ذلك لم تكن عمومته تنهزم أبدًا، كانت تظل وارفة، ورطبة، تطغى على الجينز، والكساء المخطط، والحلكة المؤقتة.. نراه فنناديه: يا عم.. ويستجيب مبتسمًا. وفي أحد الأيام زار المستشفى شاب بدا لجميع الزملاء أنه واحد منهم.. كان ابن العم تاج الذي يدرس في أوروبا هو الآخر منتهجًا ذلك النهج الذي اختطّه أبوه.. ذلك اليوم بدا العم عمًّا أكثر من أي يوم مضى.

كان المستشفى واحدًا من الأماكن المزدحمة في المدينة، كان يغصّ بخليط الساحل كله، عرب، وأحباش، وأفارقة، وقبائل من الشمال والغرب والجنوب البعيد.. ولعله كان بؤرة للترفيه الماكر في مدينة بلا ترفيه كثير.. كان ذلك الاكتظاظ معوقًا لأداء الشفاء والرحمة الذي يؤدَّى داخل ذلك البناء المشتت. كنا نمر بعنابر المرضى، فتمر معنا الأسر بنسائها، وعيالها، وأطباق أكلها.. ندخل إلى غرف العمليات، فتدخل خلفنا صراخات، وبكاءات.. نجلس في العيادات الخارجية، فتجلس معنا عمالة هاربة من مواقع أعمالها، وأمراض زائفة، ويزاحمنا التسول.. ينحشر بين التشخيص والعلاج.. فجأة صرخت إدارة العم تاج: سأوقف كل ذلك.

وبالفعل، ظهر كساء متحضر ليغطي ذلك الجو الغريب.. أُعطيت للزيارة أوقات وزِّعت على ساعات اليوم، ومُنح الخفراء صرامة إدارية لا تسمح بمرور نملة في غير تلك الأوقات.. أصبحنا نمر في العنابر بلا فوضى ولا زحام، ولا أسئلة متفلسفة يحفظها مرافقون للمرضى

باللغة الإنجليزية، ليُلقُونها في وجه الطبيب إذا مرّ.. نجلس في عيادات الطـوارئ، فـلا يدخـل إلا ممغوص أو متـأزم، أو مطعون في القلب.. قلنا: شكرًا يا تاج.. شكرًا يا عم.

في أحد الأيام جاء حماد بائع عصير الليمون في أحد الأكشـاك الملاصقـة للسـينما منـذ عهد بعيد.. جـاء زائرًا لأحد المرضى في غير وقت الزيارة فأُجهضت زيارته.. جاء في وقت آخر كان أيضًا غير وقت الزيـارة، فأُجهضـت زيارتـه.. في المرة الثالثة جاء في وقت الزيارة، لم يكن زائرًا حقيقيًا في هذه المرة، كان متعمدًا، ومصرًّا.. بحث عن العم تاج حتى وجده.. أغمد في صدره سـتًّا وثلاثين طعنة من ذات مديته التي كان يقطع بها الليمون قبل عصره.

الدكتور

كان يونس تلميذًا ثانويًّا حين التقيته.. ولد ممتلئ الجسم، يكمن في قلبه عشق للطب والأطباء فاق كل عشق آخر.. حتى تحول في النهاية إلى «ببلوغرافيا» حية تحمل في عروقها سِيرًا ذاتية لما يزيد على عشرة آلاف طبيب.. كانوا أصدقاءه المقربين، انتقاهم من عدة مستشفيات عاصمية وإقليمية زارها مجبرًا بالمرض أو متعمدًا بعشقه الخاص، وبحث عنهم في كتب الجامعات، والدوريات المترجمة، والحوارات التي يجرونها من حين لآخر في الصحف والإذاعة.. ولد ممتلئ الجسم يسكن في حيّ السكة الحديد.. في واحد من بيوت الطبقة الفقيرة.. يمضي النهار دارسًا في صفه الثانوي، والمساء متسكعًا في وسط المدينة، يعرف كل عيادة أنشئت، وكل عيادة أُغلقت، وكل طبيب تخرج، أو تزوج أو مات.. وحين يأتي الليل يستدعيهم كلهم.. يساعد حالمًا في عمليات أُجريت، ومحفّات حُملت، وأنّات رُتقت بمهارة أصدقائه الطبيين.. ويصحو في الصباح وما زالت أحلامه تقطر، تشوش تحصيله في الحصص المبكرة..

التقيت يونس في واحد من عنابر الباطنية، كان ملازمًا شقيًّا لإحدى شقيقاته التي أرقدَتها حمى «التيفويد» في ذلك العنبر. كان يتلصص على المحاليل، ووصفات الدواء، وأخطاء الممرضات، ويستاء من رائحة المطهر الشرسة، وفي كثير من الأحيان كان ينهب أعراض الأدوية الجانبية من علب الدواء، يتقيؤها في وجوهنا، وربما

أعطانا أمثلة منها في شحوب شقيقته، وانعدام شهيتها، وصداعها الغزير، وحين أردت أن أسميه «الدكتور»، ضحك مستخفًّا.. فقد كان يحمل ذلك اللقب بالفعل.. يحمله في صفه الثانوي، وبيوت الطبقة الفقيرة في حيّ السكة الحديد، وفي عنبرنا النسائي الذي يلازم فيه شقيقته أيضًا.. كنت أستغرب من ذلك النبش الغريب لتلميذ ثانوي، ولم أكن أجد في المهنة الوعرة التي نمتهنها أي بريق يغري بالتهام سِيَرِنا الذاتية.. لم نكن «محمد وردي»، ولا «الكابلي»، ولا عبد الحليم، ولا «ديانا روس»، لنرتع في أحلام صبية..

ذهبت شقيقة الدكتور من عنبرنا معافاة من التيفويد.. لكن الدكتور لم يذهب، كان يوجد في عنابر أخرى يقطنها أقارب وجيران، ومعارف.. يوجد في جلسات المساء أمام سكن الأطباء، وفي جمعية أصدقاء المرضى التي أنشأها أرستقراطيون ساحليون، وقدمت أشياء معنوية في زمان ما.. ولد ممتلئ الجسم يحكي عن البروفيسور داوود، وبشير أرباب، وأحمد البنهاوي، وخيري السمرة، وتجبير العظام الهندي، وطب العيون في إسبانيا.. وتلك المصحة السويسرية التي أنشأها جراح تركي، ولم نكن نعرف عنها شيئًا.. وحين ترتبك المستشفى بحادثة طريق، أو جروح نافذة، أو هستيريا جماعية لأحد الأمراض، كان يبدو في وسط كل ذلك دكتورًا أصيلًا.. يرتبك، ويتجهم، ويعدو، وربما صرخ نفس الصرخات التي كنا نصرخها أمام تباطؤ المساعدين.

في أحد الأيام وجدت الدكتور في أحد عنابر الجراحة، لم يكن زائرًا، ولا مرافقًا، ولا صديقًا للمرضى، ولا عاشقًا منحشرًا في كارثة محلية.. كان ملقًى على أحد الأسِّرة المتّسخة، وقد اختفى جسده تحت لحاف داكن، والتفَّت حول رأسه خرقة ممزقة، كان يبدو أنها تضغط

علـى الـرأس لإيقـاف انفجار ما.. اقتربت منه، إنه الدكتور يونس، ولد ممتلئ الجسـم يسـكنه صراع ما، وتبدو دمعات صبية تطل برأسـها من عينيه العاشـقتين.. كانت أسـرته مبثوثة حول صراعه، وأخته التي لازم شـحوبها فـي وقـت ما، الآن تخطـو بمنديل نحو عينيه، وتحكِم ضغط المـلاءة حـول الـرأس.. مددت يديّ إلى ملفـه المعلق حول الصراع.. وقرأته.. وارتعبت، كان مصابًا بورم في المخ.. وكان يحتضر.

حين دفنّا الدكتور يونس، دفنّاه كزميل عزيز، تعطلت كل الخدمات في المستشـفى السـاحلي، وبقيت خدمات الطوارئ وحدها، كنت وأنا أسير خلفه، أحس بوجود تلك «الببلوغرافيا»، وأسمع بكاء طبيًّا لعشرة آلاف طبيب لمّهم من مستشفيات عديدة، ودوريات مترجمة، وحوارات في الصحف والإذاعة.

شاعر ساحلي

أربعة عشر عامًا على قصيدة «دموع عم أحمد» وما زلت أذكرها.
و برغـم ذلـك الهجـر المتعمد، وتلك الجفوة التي حدثت بين كتابتي، وكتابة الشِّـعر، منذ صادقت الرواية، فإن تلك القصيدة ما زالت تلتف حولـي، تطـل من شـرخ النسـيان بين حين وآخـر، لتذكِّرني بواحد من أكثـر الذيـن عرفتهـم إسـاءة لاسـتخدام تلـك السـمعة التي عُـرف بها السودانيون.. سمعة كتابة الشِّعر وقراءته، وترديده وتسلق هويته.. إنها القصيدة التي أسـهمت في نفخ شـاعر سـاحلي، وإدراجه حاضرًا في الأمسيات، وزوجًا قرير العين في ما بعد.

كنا عشـرة شـعراء من أبناء المدينة السـاحلية.. نادونا للمسـاهمة فـي برنامـج «نداء السـودان» الذي يُبـثُّ محليًّا، بحضور فقير، وقصائد صارخـة، وأغنيـات تختـرع المجد وتعتدي علـى كل الأذواق، تطردها مـن السـماع.. رصونـا أمام كاميـرا، وديكور، ومحافظين.. وسياسـيين كانـوا يبعثـرون النظـر في القاعة.. ربما لقياس اتسـاعها، واسـتخدامها في دعايات انتخابية لا بد سـتحدث في المسـتقبل القريب.. وابتدأت الأمسية..

عم أحمد يبكي.. يصرخ..
يبحث عن دمع معتقل..
عم أحمد سلّم عافية الأعمام.. ومات..

انتهـت الأمسـية، جـاء المحافظـون علـى يـد الشـعر، سـلموها

شهادات تقدير وابتسامات وذهبوا.. جاء السياسيون خطبوا قليلًا، انتقوا دعامات لأحزابهم التي سوف تنهض من جديد بعد ستة عشر عامًا كسيحة، ومضوا.. جاء متشنجون، اشتكوا من عصبية القولون، وحموضة المعدة، وسألوا عن فوائد دواء «الليبراكس»، وذهبوا، وجاء «فتحي» الشاعر أيضًا.. لم يشتك من شيء، ولا بدا حامضًا أو متشنجًا.. لكنه لم يذهب أبدًا. انتقاني من كل تلك الأصوات الصارخة في الأمسية، هنأني بسوء نية، وسلمني دفترًا بعرض شاشة، كان يحوي قلبه، وهيامه، وقصائد مترنحة استخدمت كل سمعتنا القرائية، والنظمية والوزنية للشعر، ولم تستقم أبدًا.

كانت الأيام اللاحقة عذابًا لا يُطاق.. طاردني الشاعر مطاردة محترف..

كان يدخل بيتي، وصداقاتي، وإجازتي الصيفية، يدخل الغداء المبكر، والمتأخر، يدخل العشاء، وجلسات الترف التي نجلسها في فندق «بالاس»..

وجدته في عربة الأسرة، وحافلات النقل وباصات «الثورة»، و«سلاسلاب»، وحتى في تذكرة العودة إلى الدراسة وعنوان الجامعة.. كان يزيد دفتره المسيء لاستخدام الشعر، دفترًا آخر، يريده مثل صراخ «عم أحمد»، كثيفًا ومبكيًا حتى ينادي به محبوبة غافية في الهجر لا تستيقظ.. أخبرته باستحالة بث الروح في حروف ميتة، فلم يقتنع، نصحته بمؤاخاة البحر، واليابسة، والتحدث إلى الطيور والزهر، والفراشات، ونكش مكابدات «ابن الملوح» التي يمكن أن تشد أي هاجرة من شعرها، فلم يقتنع، وكان لا بد من ليالي عنيفة السهر حتى يخرج الشاعر من دمي، وعيوني، وإجازتي الصيفية.

أمسكت بالقصائد من سوء تغذيتها.. غذيتها بعسل نحلي

اخترعته حتى سَمِنَت، ومن أثوابها العتيقة، كسوتها بأزياء براقة كأزياء «فيرساتشي» حتى برقت، ومن هيامها الذي كان باردًا ثقيل الدم، ملأتها بهيام أخف وطأة.. تحولت عينا العاشق من جمرتين تلسعان، إلى وردتين تعبقان، تحول قلبه من كهف أجرد تعشش فيه الوطاويط، إلى متجر للعطر يمنح دون حدود.. وتحول الحزام الذي كان مفترضًا أن يجلد به المحبوبة إذا استمرت في ذلك الهجر، إلى طوق للنجاة يرميه لها متى ما غرقت.. وعندما رقصت أول قصيدة مجددة في أول حفل راقص.. وبصوت من أصوات الساحل المبهجة، جاءني الشاعر.. كان متأنقًا، ومنفوخًا، وبحوزته عشرات الورود التي اقتطفها من عشرات الحدائق:

لما نغيب سنين عنّك بتبقى أيامنا ما أيام
يضخ قلب الشجن دمعة.. وتزغرد في العروق آلام
لما نغيب سنين عنك بتبقى الجمرة حراقة
تموت لهفة عيون الليل، وترحل كلمة مشتاقة

كان الشاعر.. يردد تلك المقاطع أمامي دون أي وخز من ضمير، رددها بكيانه، وبروحه، ولياقته العالية، وطالب بمقاطع أخرى محسنة النسب حتى يستمر في الزهو..

قصيدة أخرى، في حفل آخر، وبصوت مقتدر أكثر.. والشاعر ينمو، حتى استقر في إحدى صفحات المجلات الباحثة عن عيون الغناء أينما نظرت. كان ثمة دفتر آخر يضخ روحي بصوته الذي تدرب على هضم تلك الروح، وكانت ثمة نظرة أخرى، أغدقتها عليه المحبوبة، وهي ترى صورتها المهزوزة سابقًا باهتزاز القصائد، وقد رسخت..

حين انتهت إجازتي الصيفية، وأوشكت على السفر، كان الشاعر

كبيرًا.. كبيرًا في عيون المدينة، وعيون وسائل الإعلام، وكبيرًا في عينَي حبيبـة تزهـو، كان زوجًـا سـعيدًا للغايـة، ومطـارَدًا من قبـل المغنين.. يريدون نزيفه.

أمير مدثر

اليوم فقط.، وصلتني تحية بحرارة التوابل، قادمة من منابع سيرة الوجع.. إنها من «أمير مدثر» الذي وصفته التحية بأنه صبيّ ابتدائيّ كثيف الشعر، يهوَى القراءة وكرة القدم، ويوفر من مصروفه اليومي كثيرًا من الجنيهات.. حتى يحتفي بعودتي حين أعود.

توغلت في التحية كثيرًا.. واستدعيت إلى الذاكرة التي لا تزال على طزاجتها عددًا من حاملي اسمي تركتهم رُضَّعًا أو يافعين.. كان «أمير مدثر» غير متوفر في الذاكرة أبدًا.. أمضيت ساعة كاملة في الاستدعاء وحين عثرت عليه في النهاية ابتسمت بزهو، فقد كان صاحب التحية الحارة بحرارة التوابل.. هو آخر المواليد الذين أسهمت في إخراجهم في المستشفى الساحلي.

كان صباحًا رمضانيًّا صارم الحرارة فيه رطوبة، وعطش، وكسل دماغي.. إنه «يونيو» كلاسيكي في شرق السودان حيث يبدأ جمر الصيف، ولا ينطفئ حتى أكتوبر.. وكنت على سفر، لم تبْقَ سوى ساعتين فقط وأغادر تلك المغادرة التي سكبت في مجرى حياتي دمًا جديدًا طغى على القديم كله.. سلمت عدتي ومهام وظيفتي وأغلقت كثيرًا من النداءات التي حاولت استبقائي. كان أعظم تلك النداءات قد صدر من الطبيب العظيم «توم حامد».. صدر في شكل نرفزة وتهيج ثم رجاء واستعطاف ولكنني لم أبْقَ.. جئت في ذلك اليوم مودِّعًا.. فقد عملت في ذلك المستشفى سنوات طويلة.. تعلمت فيها الصبر

ومؤاخـاة الإخـوة. واحتلبـت من دعـاءات مرضـاي وأمنياتهم ما يملأ عشرات النفوس بالسلوى.

دخلت إلى قسم التوليد دخول زائر عاديّ وعَجِل، لم ألتفت إلى نزيف نازف، أو صرخة متأوهة، أو حمى دماغية مغيبة.. كنت أرتدي ثياب السفر، أضع عطر السفر، وأفكر تفكير السفر.. ثم صرخت امرأة..

كانـت إحـدى الـولادات المتعثـرة.. قـررت لهـا عمليـة قيصرية عاجلـة، وكانـت المـرأة، تسـاق فـي ذلـك الوقت إلى مصـب القرار.. حيث قدر غامض ينتظر.. صرخت ليس من وجعًا ولكن من رجاءً:

- هذا هو الطبيب الذي سيجري لي العملية..

كرَّرَتها بتشنُّج، ولهفة، وإمساك بثياب سفري المعطرة، ثم زحْفٍ على الأرض.. اعتذرت بإرهاق المسافرين الذين أضنتهم أحلام السفر، فلم يجد أي اعتذار.. أشرت لها إلى أطباء أكفأ مني علّموني فتعلمت ومـا بلغـت ربـع كفاءتهـم، فلم تُجْـدِ أي إشـارة.. كان تصميمًا أخرق مجنونًا.. ولم يكن ثمة مفرّ.

سلّفني الزملاء رداءً ضيِّقًا ارتديته فوق جسدي الممتلئ، وأعانني أهل المريضة بابتسامات ودعاءات خيالية، ودخلت.

كان طفـلًا جميـلًا ذلـك الذي صرخ ولم يبقَ على موعد الإقلاع سـوى نصف سـاعة فقط.. سـلمته للحياة على عجل، وخرجت ناسـيًا حتـى أن أودع أحـدًا.. لـم أحضر تسـميته، وما كنـت أعرف حتى إلى أي مصيـر صـار. وحيـن جاءتني تلك التحية الحـارة بحرارة التوابل.. تذكّرت.

شـكرًا أمير مدثر.. كنت مثلك هاويًا للقراءة حتى اسـتحالت إلى مرض.. لكنني لم أعشق الكرة أبدًا.

شكرًا أمير مدثر.. كأنني عدت، وكأنك احتفيت بعودتي.

الخروج الكبير

يوم مغاير آخر في البلدة البعيدة.. إنه يوم خروجي من لحمها بمناسبة انتهاء عذابي الذي دام عامًا ونصف العام، تحزمت فيها بحزام الكفاف والشُّحِّ الدوائي، وعاركت أكثر الأجواء لعنة، وأشد الأمراض سخرية من جهود التطبيب.. فهزمت وانهزمت.. كانوا يلقبونني بـ«الشعبي» كناية عن خروجي على عادات الوظيفة التي تركها زملاء سابقون التحموا بالريف التحامَ ملسوعٍ بلاسعٍ، فلم يسكتوا عن الأنين حتى خرجوا، وكان خروجهم مستترًا، ومتعجلًا، وشديد النحافة بحيث إن البلدة كانت تستيقظ صباحًا، فلا تعثر حتى على آثارهم مقروءة في رمال الطرق. كان خروجي سمينًا.. وترنح في الآذان عدة أيام. وأتاح حتى لـ«ماتيت الهدندوي» ساكن البراري القفرة أن يأتي إلى البلدة ويمد يد النحافة والاتِّساخ مودِّعًا. ولـ«زليخة بنت التكارنة» أن تحتال على عواء «الروماتيزم» في ركبتيها، وتأتي مستندة إلى عكاز فقير لتقول: في أمان الله.. وحين قيل لـ«عافة» المشلول والعسكري السابق في قرية المرافيت الحدودية، إن الطبيب سيغادر استحلفهم أن يلبِسوه زيَّه القديم، ويلصقوا على كتفيه ثلاثة أشرطة بيضاء هي حصيلة مجده بعد أربعين عامًا من الخدمة، فألبسوه، وكان عند بابي يودع بتحية عسكرية مشلولة ومهدمة. كانت «التومة بنت علي» بائعة العجين المُرّ في سوق البلدة، من أكثر الذين رقدوا على طاولة الجراحة الفقيرة، وقاموا من رقدتهم، ففي غضون عام ونصف العام، أخرجتُ

من أحشـائها زائدة، ولحمية، وطفلًا وحيدًا ظلت تنتظره خمسـة عشـر عامًـا.. وكان أحـد الذيـن حملـوا اسـمي وتمرغـوا به في غبـار البيئة، والصـلادة.. حيـن عرفَتْ جاءت باسـمي ملفوفًا فـي أغطيته، وصغره، ووضعته أمامي.. قالت: لقد جاء أمير ليودعك..

حيـن حضـرتُ إلى البلدة كانت بلا سـلطة ملموسـة، كان العُمد والنُّظَّـار سُـلطة قبليـة يسـري احترامهـا في حـدود ضيقـة، كان التجار وملاك الأراضي سُلطة مادية يتمدد توقيرها بتمدد المطر واندلاق بذور الزراعـة.. دخلنـا البلـدة مـن بوابة العراء التي يحرسـها الجن والخواء الموحـش، وحيـن أردنـا الخـروج كان الحال قد تبـدّل، وكانت البلدة محافظـة وليـدة دخلتها السـلطة ورُقِّيت شـرطتها، وبيوتها، ومجالسـها ونميمة نمّاميها.. استدعاني المحافظ إلى مكتبه النظيف الذي كان في ما مضى قاعة مُترِبة يسـتخدمها التجار في إخفاء سـلع الضرورة كلما هاجت الأسـعار.. كان لطيفًا ومؤدبًا، وسـمح لنجومه المرصوصة في الكتف أن تبتسم في وجهي.. قال:

- لا تذهـب أرجـوك.. إنّـا نحتاج إليك لدعم مسـيرة التنمية في المحافظة.. عامًا أو عامين ثم تذهب.

كان يتحـدث بعمـق، وبـدا لـي متمكنًـا من منصبه، ويـكاد يوفي بعهـده الـذي عاهـد بـه وجهـاء القبائـل وهـم يزحمـون مكتبـه وبيته، وسـلطته، ويسـتهلكون شـايه المحلي «بالقرفة» أو «الزنجبيل».. كانوا يريدون إبقائي في البلدة بأي ثمن.

قلت للمحافظ:

- لا أستطيع.. لا أستطيع فعلًا.. وخرجت بعد أن تركت خدشًا في لطفه..

في المرة الثانية كان الاستدعاء صلدًا.. لا بسمة لصقور أو نجوم،

ولا كوبًا من الشاي الأحمر يطعم جلسة التفاوض.. قال: ستبقى في البلدة.. ووقف متسندًا على طاولته.. خرجتُ متأزمًا، أحدِّق في عذاب عام ونصف مَضَيَا، وعامين آخرين يخبِّئان غضبًا «إيتبيتيًّا»، وعزلة شرسة، ويقمعان عروق الكتابة التي كنت أُسكِتها إلى حين.. فكّرت في كل شيء، ولا شيء، وجاءني نفس وجهاء القبائل بنفس عمائمهم التي هزوها في حضرة المحافظ، كانوا يهدونني أرضًا، ويزوجونني بحسناء محلية، ويرصفون لي مستقبلًا غامضًا في بلدة جئتها بلدة، وأخفقت في الخروج منها بعد أن ترقت..

جادلتهم بعنف ولم أخسرهم.. وحين جاء الصباح التالي جاءني المحافظ.. كان لطيفًا ومؤدبًا.. قال وعلى كتفه أعذب ابتسامة متعسكرة:

- لا بأس يمكن الذهاب.

حين ألقيت نظرة أخيرة على البلدة.. شممت آثاري على تربتها.. تذكَّرت العجين المُرّ، و«مفروكة البامية» التي جرجرت شراب «الموكسال» إلى حياتي.. تذكرت أناسًا عرفتهم، وأناسًا عالجتهم، وأناسًا تغذيت في موائدهم، وأناسًا وعدتهم بأن أكتبهم.. وتمنيت لو غيَّر المحافظ رأيه.

وجه ومغترب

كان نهـارًا صناعيًّـا مزدحمًـا تخنقـه الأدخنـة، ورائحـة الأصباغ، وأصـوات عمـال الكهرباء والميكانيكا وعشـرات العربات الرابضة بلا روح في انتظار علاج فعّال.

كان النهار الحقيقي للحركة والنهار الساتر لعيوب المركبات حين تمرض، وتختفي عن شوارع المرور اليومي. وكان باعة الشاي والقهوة ومياه العطش، ومزاج «البرنجي»، يمرون بإلحاح عشوائي، يجرُّون اللسـان الصامت إلى حوار بلا معنى، ويكادون يحقنون بضاعتهم في الدم مباشرة.

طقس مباشر ومألوف.. ومُجِدّ أحيانًا، ومضيِّع للوقت في أحيان أخرى.

كنت أحتسي قهوة «زنجبيلية» وأتابع عاملًا يداوي سيارتي حين خدش أحدهم سمعي:

- ما رأيك في الجمال «البقّاري» يا مغترب؟

التفـتُّ.. فوجدته ستينيًّا يبتسـم بلا قواطـع ولا أنياب.. ويقترب ببصـر واهـن مـن بائعة الشـاي التـي كانت وجهًا قرويًّا ممتلئًا بالأسـى والعمـر والمصاعـب.. رابضًـا فـي تلك البقعة الرجاليـة دون إغراء أو فتنـة. ربمـا كانـت مـن قبائل البقّارة كما قـال.. وربما من قبائل أخرى تلتقي مع البقارة في الفقر والرحيل. حاولت أن أتجاهل الرجل، لكن مناداته لي بالمغترب حيرتني، وحين هممت أن أسـأله كان قد اختفى

في لُجّة النهار الصناعي.

فجأة داهمني معمَّم يحمل وجهًا مجعدًا ويَدَيْن صلدَتَيْن وأوراقًا بها أسماء وأختام وتواريخ قرّبها من وجهي وهو يصرخ:

- سامحني يا مغترب.. قال الشاعر:

«نزل الفقر كرعين الرجال»..

بالطبع لم يقل شاعر ذلك، ولا حتى الولد المستهتر «أ. أ» الذي شتم طالبات الجامعة بقصيدة عنوانها «في ذم حواء» في إحدى أمسياتنا الشعرية في القاهرة منذ خمسة عشر عامًا، وحوَّل المجتمع الطلابي في ذلك الوقت إلى مجتمع خاوٍ يشكو من ركود العواطف، وجفاء المحبين.. أيضًا لم يجرؤ الفقر يومًا على إنزال رِجل لأحد من أي وضع اتخذته، لكن فكاهة اللحظة أطربتني، فحاورت الرجل:

- لم يقل أحد هذا الشعر من قبل.

- بل قال.

- أنا لم أسمع به.

- لأنك لا تقرأ.. إنه موجود في كتب التاريخ.. والكتب الصفراء.

كان المعمَّم متماسكًا وواعيًا ومصرًّا على بيت شعره المعوَّق ورافضًا أي وسيلة لعلاجه.. حاولت تزويده بالبيت الأصلي، فما تَقبَّله، وبدا له إذلال الفقر لأعناق الرجال أشدَّ بشاعة من إنزاله لـ«كرعينهم».. كان متسولًا في لحظة انشغاله بوظيفته.. شَمَّ فيّ اغترابًا وشَمَّ في اغترابي دراهم، وتمسّك ببيت شعر مختل دون ذرة من ارتباك. ضحكت مضاعفًا وسألته عن قضيته.. كانت قصة مرتبكة ومتوقعة عن زوجة مريضة، وعيال مكفوفين، وحريقًا التهم عدة أفدنة في قرية ما. تذكّرت قصة «آدم كذب» التي كتبتها في كتابي «مرايا ساحلية».. وصمتُّ لحظة أحصي خسائر الرجل وتكاليف ترميمها فوجدتها عدة

ملايين من الجنيهات.. قلت للرجل:

- أعطيك الآن عشـرة آلاف من الجنيهات فمن أين تأتي بسـبعة ملايين؟

خاطبني بنفس وجهه المتماسك:

- مِن غيرك بالطبع.. هل تظنني سأقف عليك وحدك؟

ثم ابتعد حاملًا قصته ليرتبك بها في مكان آخر.



سيرة الوجع

أمير تاج السر

إن «تاج السر» لا يعيد رواية الوقائع المعيشة ولا يفسرها بل ينسف هذه الوقائع ويواجهنا بقدرتها على أن تكون مصدر مفاجأة مستمرَّ التدفق. وهنا بالضبط تكمن غنائية هذا الروائي الذي يخبّئ في أعماقه روح شاعر متمرد بقصائده النافرة. وهو يلتقط سحر هذا الشعر بأناة من تفاصيل حياة غالبًا ما تكون غير مرئية. هذه الحياة الخفية التي هي أشبه بالأسطورة إنما هي مصدر الإثارة التي يطلقها السرد الروائي من قمقمها.

فاروق يوسف





للنشر والتوزيع

ISBN 978-2-84409-662-3



تصميم الغلاف : مهدي عبده
صورة الغلاف : Frank Love